www.liilas.com

روايات أحلام

حنين

doode al 7aloo

www.liilas.com

روايات أحلام

حنين

هل أخطأت كابي عندما «طلبت يد» تارغت كاسون للزواج؟ وهل بالإمكان إصلاح هذا الخطأ بالفرار قبل ليلة العرس؟

هكذا كانت كابي تواجه مشاكلها. متهورة وصغيرة على تحمل نتائج طيشها، لذا لم تجد حلاً إلا الفرار إلى الماضي حيث الملاذ الآمن عند مربيتها القديمة، وحيث صديق الطفولة الحبيب القديم هارفي.

لكن العريس المهجور عاد إلى الظهور في أفق حياتها الجديدة، وقال لها: الأوهام سريعة الزوال، فلا تبني أوهاماً على ما لم يكن موجوداً أصلاً..

فهل تقرر كابي العودة إلى عالم الواقع أم تعود إلى لعبة الهروب ثانية؟

doode al 7aloo

لبنان ٢٠٠٠ ل.ل.	الإمارات ٦ د.	مصر ٤ ج.	ليبيا
سوريا ٥٠ ل.س.	قطر ٦٠٠ ر.	المغرب ١٥د.	اليمن
الأردن ١ د.	البحرين ٦٠٠ف.	تونس ١.٥ د.	السودان
الكويت ٥٠٠ ف.	السعودية ٧ ر.	عمان ٦٠٠ ب.	العراق

روايات احلام

تصدر عن شركة دار الفراشة للطباعة
والنشر والتوزيع ش.م.م.
ص.ب: ٨٢٥٤/١١ - بيروت - لبنان.

المدير المسؤول: آمال سابا الهاشم
جميع حقوق الطباعة والنشر والاقتباس والتأليف محفوظة للشركة.
التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات

تنفيذ وطباعة مؤسسة دلتا للطباعة والنشر
حارة حريك ت: ٨٢٣١١٨ - ٠٣/٢٨٧١٥٨

١ - تزوجني أيها الغريب!

انشغلت كابي للحظات عن الإعجاب بجهاز عرسها القابع في غرفة في طبقة المنزل العليا، منزل ماري لو والتر، التي كانت متوقفة تحت لوحة القاضي محدّقة إلى الصورة بريبة..

كانت اللوحة للمرحوم السيد غرانت كاسون ذي الرداء الأحمر والشعر المستعار، شعرت كابي بأنه ينظر إليها بتجرده القضائي نظرة باردة، بدت وكأنها تتساءل عن حقها في وجودها أصلاً.. وكأنه يفكر: «من هي هذه الشابة الوقحة التي تسعى إلى الزواج بابني، وماذا تعرف عنه أو يعرف عنها بعد هذا التعارف القصير؟».

كان على كابي أن تعترف أنها تعرف القليل، فما زال تارغت بعد أربعة أسابيع على خطوبتهما غريباً عنها وكذلك الحال بالنسبة لأخته ماري لو التي يصعب عليها التعرف إليها والمؤسف أن عمة كابي عهدت إليها مسؤولية تنظيم العرس.

قالت لها العمة عندما اعترضت ابنة أخيها:

- ولماذا لا تتولى تنظيم العرس أخته؟ المرء لا يتشدق كثيراً عندما تكون يده مفتقرة إلى المال.. البوتيك يستنفذ جميع مدخراتي.. ماري لو على حق عندما قالت إن منزلنا الصغير غير مؤهل لإقامة حفل الاستقبال. ولماذا نتكبد كلفة استئجار مكان ومنزلها في هاجستين تحت الطلب؟ ستتزوجين رجلاً من طبقة رفيعة المقام عزيزتي.. أفلا أقدم لك جهاز

العرس المناسب؟

صحيح أن الجهاز لم يكن بالمستوى المطلوب، لكن، بما أن العمة اعتمدت على البوتيك العصري من أجل كل شيء، فقد وفّرت المال، وقدرت معه قيمة المساهمة المالية التي ستقدمها ماري لو وصديقاتها الثريات.. على أي حال تمنت كابي وهي عابسة في وجه صورة والد تارغت المهيب لو كانت مناورات العمة بغير هذا الوضوح والزهو.

ـ ما كنت لأختاره لولا انتماؤه إلى طبقة جيدة.

كانت العمة مغرمة بهذا القول، ولكن كابي تعرف أن هذا مجرد كلام.. فالسيد تارغت كارسون، هو الابن الوحيد لقاضي شهير، وصاحب مكتب محاماة مزدهر، لذا يعتبر صيداً ثميناً يدير قلب العمة الفرنسي.

كانت أشعة شمس الصيف تتسلل من النافذة المفتوحة مرسلة بريقاً متراقصاً على الوجه المرسوم مضفية عليه ما يشبه الحياة مؤقتاً.. سيكون تارغت مثله في أحد الأيام فله العينان الثقيلتان ذاتهما والأهداب نفسها والوجه النحيل الحساس ذو الفك الطويل ذاته.. وجه غير مريح في الواقع.. ولربما وضعت ماري لو صورة أبيها الشهير في إحدى غرف النوم الإضافية، لأنها لا تتناسب مع ديكور غرفة الاستقبال الفخم. إن كابي جوردن عصرية ولكنها تفتقر إلى اللياقة وهي إلى ذلك غير متجانسة مع مجتمعها.. أدارت كابي ظهرها إلى الصورة لتتأمل فستان عرسها مرة أخرى.

رفعت الفستان بحذر من رزمته الورقية متسائلة إذا كان سيرضي عين عريسها الدقيق الملاحظة فهي على الرغم من غياب الحب بينهما تريد إرضاءه كثيراً في هذا اليوم الذي يجب أن تظهر فيه كل العرائس جميلات.. ولو كانت سترتدي هذا الفستان لهارڤي لشعرت بأنها فتاة غالية مرغوبة.. إنما لا جدوى الآن من التفكير في هارڤي أو في تلك الصدفة التي جمعتها بتارغت والتي رمتها على عجل إلى زواج مختلف.

وقفت وهي ترتدي الفستان أمام مرآة حائط قديمة الطراز، تراقب لمعان شعرها الذي يتراقص كلما تحركت. كانت تتحرك لترى كيف ستكون في عيني تارغت.. أيجد الفتنة في وجهها، كما كان براه هارڤي؟ أم أن للعينين الخضراوين والشعر الأحمر، والأنف المستدق، مجرد مساهمة بسيطة في جاذبية بسيطة؟ كان هارڤي يقول لها إنه وجه قطة، عريض عند الخدود، ضيق الفكين، وجه بريء مثير، ولكن ما الفائدة من تذكر كل ما كان يقوله هارڤي، أو تذكر الغيرة التي كان يبديها.

أعادت الفستان بحذر إلى لفافاته، وتقدمت إلى النافذة لتطل على الخارج حتى تحلم قليلاً.

في الأسفل، في الحديقة المشذبة، كانت العمة تحتسي الشاي مع شقيقتي تارغت: ماري لو الأنيقة الهادئة، ونانسي غير المتزوجة التي يأسر تفكيرها الجمعيات النسائية التي تريد من خلالها عرض مدى تعصبها لأدب النفاق. لقد أصرت العمة على أن تبقى هنا ولكن كابي تمنت لو أمضت هذه الأيام الأخيرة مع زوي في هدوء كوخه وسكينته.

ابتسمت كابي لنفسها متذكرة أول تعرفها إلى زوي التي تذكرها العمة دائماً على أنها أفضل من يعتنى بطفل غير مرغوب فيه لقضاء العطلة.. يومذاك لم تقابلها امرأة بزيّ المربية الضخمة الصدر، بل استقبلتها امرأة نحيلة، ذات شعر أسود لا تشوبه شائبة.

قالت لها:

ـ إذن لقد وجدت ميرا أن لي فائدة حالما أصبح بين يديها طفلة؟ اذهبي واغسلي وجهك ويديك في حجرة غسيل الأواني.. المياه باردة لأننا لا نشعل النار أيام الجمعة.. ستناديني الآنسة جونس، أيتها الآنسة الصغيرة، وذلك حتى تتعرفي إليّ.

خاطبتها كابي بلهجة رسمية كحال جميع مربياتها السابقات لكنها لم تخف يوماً من زوي رغم سلاطة لسانها، ومع الوقت أحبتها. كانت زوي تسكن في الكوخ ناظرة على منزل «التينرز» الذي كانت يوماً المشرفة على

قسم الحضانة فيه.

أصبح المنزل بالنسبة لكابي طلسماً سحرياً أو مملكة تعود إليها كل صيف، لتجدد إيمانها بالحلم ولتكون مع هارڤي.. هارڤي.. لا غرابة أن تخلط دائماً الخيال بالواقع كلما التقيا.. فهو مثلها، كان يقصد المكان من أجل قضاء العطلات أما إقامته فكانت عند عمه وكان هو مثلها الطفل الوحيد لأبوين ميتين.. لم يسخر قط من أحلامها أو خيالاتها، بل زخرفها لها بحذاقة حتى أصبحت مؤمنة بها. آمنت بكلامه عندما وعدها بالزواج حينما يكبران..

تنهدت كابي وهي تفكر كم كانت ساذجة في نظر هارڤي عندما التقيا ثانية إذ توقعت منه أن يطلب يدها.. وكم بدت ساذجة أمام تارغت حينما اقترحت باندفاع أن يواسيا بعضهما بعضاً بسبب خيبة الأمل المشتركة. ففي ذلك الوقت كانت ملاحقة هارڤي لها شديدة الحرارة، كثيرة الإغراء، حتى ظنت أنه لا يمكن لهذه العلاقة إلا أن تنتهي نهاية سعيدة ولكن ما آلمها أن تعرف أن العمة متلهفة لنقل حملها المزعج إلى كتف أخرى بأسرع وقت ممكن.

حسن جداً.. لقد انتهى كل هذا الآن.. مالت إلى الخارج لتنتزع وردة مستلقية على الجدار.. إنها على جادة الصواب وإذا كانت العمة دهشة لأن ابنة أخيها العادية الذكاء تمكنت من إيجاد زوج مميز كهذا فهذا ليس بغريب.

تذكرت كابي وهي تشمّ الوردة بشغف أن تارغت سيصل وقت العشاء، وأن عليها أن تنزل لتنضم إلى الآخرين. لكن كلمات نانسي المتوترة المتعجرفة أوقفتها.. فما ان ابتعدت عمتها عنهما لتدخل المنزل، حتى قالت:

ـ هذه المرأة مزعجة.. فبعدما اصطادت بنجاح تارغت المسكين، ترغب في امتصاص دمه حتى تأخذ منه كل ما تستطيعه.

ردت ماري لو ببرود يذكر كابي ببرود أخيها:

ـ أعتقد أنه أخذ هذا بالحسبان.. وهو قادر على الاهتمام بشؤونه كما أنه لن يتزوج العمة.

ـ إن هذا الزواج غير طبيعي.. فبعد نجاته من براثن أمهات حاولن إيقاعه ارتبط بفتاة فارغة الرأس، صغيرة تصلح أن تكون ابنته.

ارتفعت ضحكة ماري لو:

ـ هذا غير صحيح حبيبتي.. فما هو بمراهق!

ـ تختارين المزاح ماري لو.. أترين اختياره مناسباً خاصة بعد خطوبته السابقة لداندي.. إنها ليست جميلة حتى.

ـ ألا ترينها جميلة؟ لكنها ظريفة.. وللظُرف سحره الخاص. هكذا قيل لي.

ـ ومن قال لك.. ليس تارغت بالتأكيد.. إنه يتوقع أكثر من الظُرف مقابل ماله..

ـ على أي حال هذا ماله.. إنها تسليه فهو يقول إنه يجدها مثيرة لأنه اتخم من الجمال الغبي.

ـ إذا كنت تعنين بقولك داندي فأنت تعرفين نعم المعرفة أنها كانت مناسبة له وهذا ما يعرفه تارغت أيضاً. إن ازداد مقامه وإن بلغ ما وصل إليه أبي من مركز فسيحتاج إلى زوجة تستطيع مساعدته اجتماعياً.. أنا وأنت نعرف أن وصوله إلى القضاء غير بعيد.

ـ وهذا ما يعرفه تارغت أيضاً فهو يستعد للمنصب.. على فكرة، هل سمعت أن الخطوبة انفسخت؟

ـ خطوبة من؟ داندي؟ حقاً؟ أيعرف تارغت بالخبر؟

ـ لا أدري.. فهو كما تعرفين كتوم فيما يتعلق بشؤونه الخاصة.. على أي حال الوقت متأخر لإعادة النظر الآن.. فلن يحرك ساكناً بالنسبة لخطوبته الحالية حتى وإن عرف أنه مخطىء.. سيكون كل شيء على ما يرام عزيزتي.. الفتاة صغيرة بحيث يمكن تطويعها.

ـ تسعة عشر عاماً وشعر أحمر يدل على طبع صاحبته الملتهب! لن

يتحمل تارغت المشاكل طويلاً.

ـ آه توقفي عن اختلاق مشكلة كبيرة من لا شيء نانسي! فالفتاة وعمتها الكريهة لا تروقان لمزاجي وذوقي، لكن كابي على الأقل بهية الطلة، وحسنة التصرف.. أما خصالها الأخرى فشأن تارغت.. أليس كذلك؟

ـ أجل.. وماذا يخيء تارغت في نفسه بالنسبة لهراء شهر العسل! لماذا هو غامض متكتم؟ حتى كابي لا تعرف إلى أين سيذهبان.

ـ يريده مفاجأة. ربما يحاول التعويض عن افتقار خطوبتهما إلى الرومانسية. أعتقد نظراً لمعرفتي بتارغت أنه يخطط برنامجاً سرياً. ربما يريد القيام بجولة في عواصم أوروبا، أو برحلة بحرية فخمة. غير أنني أرى مخططه هذا هدراً للوقت على العروس.

ـ هذا ما كان يخطط له بالنسبة لشهر عسله مع داندي. ربما أنت على حق يا ماري لو. برأيك كيف اصطادته؟ ألا ترين أنه يسرع في الزواج..؟

ـ لا. أعتقد أنه أشفق عليها.. ربما هناك صلة عاطفية تبعث صفعة داندي له.. فعرض عليها خدماته نوعاً من ترياق للشفاء.. للأسف لم تكتشف داندي غلطتها قبل الآن.. إنما هذه هي الحياة.. بالله عليك، لا ترمي ملاحظاتك الفظة عندما يصل تارغت للعشاء الليلة. لأنه لن يشكرك عليها.. العمة عائدة فاصمتي الآن وحاولي أن تكوني لطيفة نانسي.. لا تلومي المرأة المسكينة لأنها تدفع ابنة أخيها إلى هذا الزواج.. مرحباً ميرا عزيزتي! هل أجريت الاتصال الهاتفي؟ وأين تختبيء هذه الطفلة طوال الوقت؟ أما زالت فوق تستمتع بالنظر إلى جهاز عرسها وتحلم بيوم عرسها؟

كان يستحوذ على كابي التي استرقت السمع رغبة في الصياح بهما: أنتما لا تعرفان شيئاً، فما كان يوم عرسي بعيداً عن أحلامي كالآن.. أيتها السيدتان الدبقتا الأنف، الشريرتا العقل والتفكير، يا سافلتان! ولكن ما هذه بالإهانات التي يقولها المرء أمام من يستضيفه في منزله، ولو كانت

هذه الضيافة على مضض.

ارتدت بسرعة عن النافذة لئلا تفضح أمرها، وقفت تسحق الوردة على صدرها، ثم راحت دموع الخجل والخيبة تثقل عينيها.. هذا هو إذن رأيهما فيها وفي عمتها، تريان أنهما امرأتين متآمرتين اصطادتا أخيهما الغالي في لحظة ضعف! تذكرت كابي بسخط أنها أعطته فرصة للانسحاب، أما كان بإمكانه القبول بالمنقذ المعروض عليه بالضحك بدلاً من الإسراع في الالتزام؟ عاد ذلك المساء إلى تفكيرها.

تذكرت حفلة الكوكتيل التي أقيمت قبل شهر. كانت يومذاك متعبة إثر لقائها المذل مع هارڤي.. كانت قد سعت إلى تجنب المشاركة بالحفلة لكن العمة التي لم تستطع الذهاب بنفسها، اعترضت، وقالت إن على الزي الجديد أن يُعرض، كنوع من الدعاية للبوتيك، وهذا أقل ما قد تقدمه كابي مقابل تربية العمة لها.

هكذا ذهبت كابي إلى الحفلة معتبرة أن من الخير لها القبول بذلك حتى يتسنى لها الوقت لتسيطر على نفسها، فعاجلاً أم آجلاً ستضطر إلى مواجهة انتقادات العمة في ما يتعلق بعلاقة الحب الفاشلة.. لكنها لم تكن تعرف أحداً هناك، فكان أن وقفت مرتبكة تمسك كأسها حائرة.. ثم شاهدت تارغت يستند إلى جدار.. بدا وحيداً بلا رفيق مثلها، أو ربما كان يشعر بالقرف من وجوده بين هذا الحشد الصاخب.

في ذاك الوقت لم تكن تعرفه كثيراً، فتعارفهما لا يتعدى قضية غير ناجحة ولته إياها العمة. ولكن بين هذا الحشد من الغرباء الذين لا يثيرون الاهتمام، بدا لها كأنه صديق قديم. نسيت كم كرهت تحفظه المهني في لقائهما الأول في مكتبه المتجهم وكرهت قلة صبره التي أبداها تجاه مقاطعات العمة التي لم يكن لها علاقة بموضوع حديثه.. بعد الجلسة أوضح لها بحدة أن العمة خسرت الدعوى لأنها أثبتت للمحكمة بكلامها أنها شاهدة لا يُعتمد على أقوالها، ثم دعاها، ويا للدهشة! للعشاء. بدا معجباً بحديثها غير المترابط، وبدا مستعداً للانغماس في غزل مهذب لو

شجعته . .

في تلك الحفلة ورغم تشتت ثقتها بنفسها، بدا لها كمن يقدم لها طوق نجاة. فرباطة جأشه الباردة ستقوي عندها افتقارها إلى الثقة بالنفس، فتوجهت إليه مباشرة ولكنها في عجالتها سكبت الشراب على فستانها.

صاحت كابي صائحة.

ـ لا . . ! هذه آخر قشة . . لن تسامحني عمتي أبداً.

رفع حاجبه يرد بكسل:

ـ لا داعي إلى هذا كله فلن تقطع عنك عمتك مصروفك لتسددي فاتورة التنظيف.

ـ ليس لدي مصروف بل لديّ مالي الخاص.

رفعت أنفها في الهواء فقد أرادت أن تصور الإيراد القليل الذي تركه لها والدها وكأنه ثروة.

أضافت: «إن هذا الثوب هو أحد الأزياء الذي يعود إلى البوتيك . . لقد أملت أن يلفت نظر امرأة ما في الحفلة لأقوم بتشجيعها على زيارة البوتيك، ولكن للأسف لا أعرف أحداً هنا».

ـ هكذا إذن!

في صوته رنة ازدراء سارعت إلى رفضها كرمى لعمتها. أجابت مدافعة عن العمة بحدة.

ـ لا شيء رخيص في وسائل العمة الدعائية إذ عليها الاهتمام بوسيلة رزقها.

رد بلطف:

ـ وهل أشرت إلى عكس هذا؟ ما الذي يكدرك كابي جوردن؟ تبدين كمن فقد شلناً. فلنخرج من بين هذا الجمع الصاخب . . وراء هذه الأبواب الزجاجية شرفة لم يكتشفها أحد، فيها الجو منعش.

في تلك العشية تشوّش تفكيرها إذ تذكر أنه رافقها بسرعة وسرية إلى حيث جلسا في زاوية الشرفة، يتفرجان على عشاق ليل حديقة ريجنت

العامة، ويصغيان إلى صوت الحيوانات في حديقة الحيوانات. تذكر أنها شعرت بالسعادة معه وقبل أن تدرك وجدت نفسها تفضي إليه بأسرارها وكأنها تعرفه طوال عمرها.

سألها بلطف وهدوء ولكن بشيء من التسلية:

ـ أكانت علاقة الحب الأولى؟

حاولت أن تشرح له أنها لم تكن علاقة حب بل شعوراً نما بينهما منذ كانت في الثالثة عشرة. قالت له إنها لم تعرف أن فكرة هارڤي عن تحقيق أحلام الطفولة يتوقف بعيداً عن مراسم الزواج؟

نظر إليها تارغت بشيء من الحزن، وقال:

ـ أنت صغيرة جداً . . أليس كذلك؟ صغيرة، ومخلصة في عصر تغيير القيم. أتعلمين أنه من غير المفيد لك أبداً وضع ثقتك في مكان واحد، للقدر عادة شريرة في تحطيم كل شيء وفي تركك خالية اليدين.

قالت وكأنها فهمت ما وراء كلماته:

ـ يبدو لي أن ثقتك بأحدهم تعرضت للدمار . . أليس كذلك؟

ـ يمكنك قول ذلك . . ولكن الغلطة غلطتي . . لقد أطلت فترة الدلال والمداعبة . . أتعلمين يا كابي أن المرء في التاسعة عشرة من عمره قد يرتكب الخطأ في الحب ولكن لا يسمح له بذلك وهو في الرابعة والثلاثين.

في صوته نبرة جديدة عليها . . ولكنه لا يبدو كمن تلقى ضربة مميتة.

أعادت النظر إلى جانب وجهه تعيد تقويمه . . لم يكن أشقر أو أسمر بل حنطياً. كانت تود لو تقارن مظهره بجاذبية هارڤي الجلية الجريئة، لكن لا يمكن القول أبداً إنه غير وسيم خاصة بعدما لاحظت الأنف البارز والجبهة والخطوط الممتدة من الأنف إلى الفم، والبشرة المشدودة فوق عظام وجنتين بارزتين.

سألته بصراحة:

ـ هل تعرضت أنت أيضاً إلى لطمة مهينة؟

تغير دفء نظرته إلى مرح مفاجىء:

ـ هذا صحيح تماماً.. لقد شعرت السيدة بالضجر فقبلت الزواج برجل آخر.

ـ لكنك لا تبدو متكدراً كثيراً..

ـ لا تخطئي يا سيدتي الشابة في الأخذ بالظاهر.

ـ أنت إذن مستاء؟

ـ فلنقل إن كرامتي تلقت وخزة مهينة، هذا دون ذكر شيء عن خيبة أمل عائلتي التي تظن أن الوقت قد حان لأتزوج.

فتحت الملاحظة الأخيرة قاسماً مشتركاً، فقد تذكرت أن هناك خيبة أمل بانتظار العمة.. فقالت، وعيناها الخضراوان تتسعان كطفل ضبط وهو يسرق الحلوى:

ـ أجل.. هذا هو الجزء الكريه.. أليس كذلك؟ ستقول لي عمتي إنني لم أحسن لعب أوراقي.. أترى، لقد تركتها تعتقد.. هذا لأنني كنت متأكدة عندما التقينا ثانية.. صحيح أن العمة لم تعتبر هارفي زوجاً جيداً من الناحية المالية ولكنه بالطبع سحرها وهي تائقة بشدة إلى تزويجي.

ـ لماذا؟

ـ حسناً، هي ليست قريبة دم، أنا أشكل لها بعض الإحراج خاصة بعدما تخلصت من زوجيها الاثنين.. صحيح أنني أقوم ببعض الأعمال في البوتيك، ولكنني لست طويلة بما فيه الكفاية لأكون عارضة أزياء.. ولست لبقة لأكون بائعة ناجحة، وأضف إلى..

ـ أجل؟

ـ حسناً، ذلك المنزل خلف البوتيك صغير جداً، وأنا أحتل غرفة نوم الضيوف الوحيدة.. في بعض الأحيان يسبب الأمر إرباكاً.

ـ فهمت.. يبدو أنك كنت واثقة أكثر من اللازم بذلك الشاب. هل أفهم أنك كنت تحتضنين آمالاً خائبة فقد كنت في الثالثة عشرة؟

أشعلت الريبة في صوته رغبة غير مألوفة للإفضاء بأسرارها..

تضافرت العتمة في الحديقة العامة مع دمدمة الأصوات وعزلة الشرفة الحميمة لتخفي عنها الواقع. فوجدت نفسها تبثّه كل شيء عن مباهج سانت كوباي المفقودة بدءاً من الأصداف مروراً بكهوف القراصنة ورائحة الأعشاب وطحالب البحر، وصولاً إلى المنزل القديم المهجور. لقد تحدثت عن تلك الذكريات بتلعثم وبحنين مشوش أما تارغت فكان يصغي إليها بعينين نصف مغمضتين.

أضافت متجاهلة صمته:

ـ كان هناك بئر الأمنيات التي كنت دائماً أهمس عندها الأمنية ذاتها.

ـ وما هي تلك الأمنيات؟

ـ أن يكون المنزل لي يوماً.. أليست أمنية سخيفة؟

ـ سخيفة جداً.

جلست وهي تحس بأنها خجولة بسبب ما باحت به من أسرار أمام هذا الرفيق غير المألوف. قال لها:

ـ أنت لست في الواقع تلك الفتاة الشابة الحذقة التي تودين إظهارها.

كانت عيناه رغم لمسة السخرية في صوته تراقبانها باهتمام مفكر.. سألته بتواضع:

ـ أتجدني حذقة؟

ـ بلى.

ـ إنه أنفي المتجه إلى الأعلى قليلاً.. ربما لم تلاحظ!

ـ بل لاحظته! أمن الضروري أن أعترف أنني معجب بالأنوف المستدقة؟

ـ بالطبع لا.. ربما ليس السبب أنفي أبداً.. بل السبب هو تصرفك بطريقة محام جالس في قاعة محكمة عليا. إن تصرفك ذاك هو ما يدفع أسوأ ما في أعماقي إلى الخارج.

ـ محتمل جداً.. لا شك أنك شاهدة مثيرة للسخط والجدال.

نظر إليها بلطف ثم سأل عن غير توقع:

ـ أتعلمين أنك تحبين حلمك، وأن هذا الشاب الرومانسي ما هو إلا شخص عرضي؟

صاحت وهي تفتح عينيها الخضراوين على وسعيهما:

ـ كيف يمكن هذا؟ إنه جزء من الحلم كله!

رد، بشيء من نفاد صبر:

ـ بالضبط.. والآن، كيف ستتعاملين مع عمتك وخيبة أملها، هذا دون ذكر خيبة أملك؟

تململت بقلق نادمة على ما باحت به.

ـ لا بد أنني كنت ساذجة جداً.. لأنني ظننت أن العلاقة ستنتهي بالزواج.

ـ يميل من هم في مثل عمرك إلى الاعتقاد بأنهم عباقرة. ولكن الزمن سيغير هذا الاعتقاد.

تساءلت عما إذا كان يتعمد وضعها عند حدها بعدما سئم من هذه الثرثرة.

قالت بحدة:

ـ حسناً لا حاجة بك إلى أن تظهر اعتدادك، فأنت قلت بنفسك إن حياتك العاطفية غير ناجحة.

ـ هذا صحيح.. حسناً.. هل أستطيع القيام بشيء ما للتخفيف من حدة ورطتك..؟

لا بد أن السبب الطريقة التي كان ينظر إليها أو ربما الألفة التي أحست بها من جراء إفضائها بأسرارها له، ولكنها وجدت نفسها تقول بجرأة أخافتها:

ـ لا أعتقد أنك ترغب في الزواج بي؟ لا شك أن العمة ستعتبرك شخصية جيدة فتنسى المسكين هارفي. إننا الآن معاً في القارب نفسه أعني.. و.. و..

وصمتت.. كانت تشعر بالرهبة من طيشها فجلست بوقار متحدية،

تراقب أي دليل لخيبة الأمل على وجهه أو أية تسلية قلبية.

رد عليها بهدوء:

ـ ولماذا لا؟ نعم، بكل تأكيد أيتها الآنسة العديمة الصبر. لماذا لا نتشارك القارب ومخاطر بحر الزواج معاً؟

ـ هل.. أنت.. جاد؟

ـ بكل تأكيد.. ألست أنت جادة؟

ـ لا أدري.. لا.. بالطبع لا.. فأنا أكاد لا أعرفك..

ـ هذا محتمل.. ربما نبع اقتراحك من عقلك اللاواعي.

ـ لا.. لا أظن ذلك بل هو نوع من الجرأة والتحدي، أنا أسحب الاقتراح.

ـ أذكر منذ زمن بعيد أن الانسحاب لا يفيد متى قُبل التحدي.

ـ ألن تنسحب؟

ـ قطعاً لا.. الكرة إذن في ملعبك. هل أنت جبانة؟

ـ بالطبع لا! أنا غير خائفة من شيء! لكن..

ـ أحقاً غير خائفة من شيء آنسة جوردون؟ حسناً جداً إذن، لا داعي للمزيد من الأفكار الرصينة.. أنا لا أتمكن أبداً من مقاومة التحدي.. لذلك قبلت تحديك.. وبما أنك قلت إنني أدفعك إلى إخراج أسوأ ما فيك فلن يكون اتحادنا مملاً.. هل من أسئلة أخرى؟

دارت أسئلة كثيرة في رأس كايي حتى أحست بالدوار. ولكنها تمكنت أن تقول:

ـ حسن جداً.. إنما لو رغبت في تغيير رأيك غداً فسأقبل.

ـ لست من المترددين وفي قلبي من القوة ما يجعلني أتصرف بكل لياقة.

ـ لم أشك أن لك قلباً.

ـ لا؟ لكنك لا تعرفينني البتة.. أنت تثيرين نزعتي الطبيعية إلى المزاح يا كايي المثيرة. إنما إياك أن تنخدعي فأنا أؤكد لك أنني سأكون زوجاً

رائعاً وسأوفر لك الترياق الأمثل لتوقك إلى تعلم الحب.

كان يميل إلى الأمام وهو يتكلم، بدا أن رقة ما خفية في عينيه اللتين أسرتا عينيها لحظة.. ولم تعرف كيف ترد عليه.. تناهت إليهما من الباب قهقهات عالية فانحنى يعانقها عن غير سابق إنذار ثم وقف قائلاً:

ـ تصبحين على خير، يا طفلتي الجريئة غير المذعنة.. سأزور عمتك صباحاً، لأقوم بطلب يدك بشكل لائق.

وتركها.

ـ كابي..! ألن تنزلي لتناول الشاي؟ أنا راحلة بعد قليل. من غير اللائق أن تغيّبي نفسك في منزل مضيفيك.

كان صوت عمتها الحاد ينادي من تحت فعادت كابي إلى حاضرها ولكنها ظلت واقفة في مكانها ترفض الرد وتتذكر السرعة المربكة التي سار فيها الزواج. أعادت النظر في الشهر القصير بنظرة منفتحة. بدا لها من الطبيعي أن يقلّل ضغط العمل القضائي من زيارات تارغت ولكنها الآن تذكرت تلك الفرص النادرة التي كان قادراً فيها على التودد إليها. كانت راضية بما اختار أن يقدمه لأنها سعيدة بهذا الترياق الشافي لمشاعرها. أما الآن فهي تدرك بوضوح مرعب، أنها لا تعرف شيئاً عن حاجات الرجل الذي ستتزوجه بعد بضعة أيام، بل لا تعرف حتى إذا كان بإمكانها إرضاء حاجاته أو رغباته التي لا تدري إن كانت ما تزال في مكان آخر.

ضحك شخص ما في الحديقة ثم سمعت صوت ماري لو بوضوح:

ـ يا للمرأة المسكينة! لا شك أنها على قرميد ساخن إذ تخشى أن يحدث شيء في آخر لحظة! تماسكي نانسي، وحاولي ادّعاء السعادة إذا نجحت في جرّ الطفلة إلى هنا لتناول الشاي.

صاحت كابي لنفسها بذعر مجنون:

ـ ماذا فعلت بنفسي؟

في اللحظة ذاتها دخلت العمة إلى غرفتها.. لتصيح متوترة:

ـ يا إلهي! لماذا أنت واقفة هنا باكية؟ هل أفسدت فستان العرس؟

لم تدرك كابي أنها تبكي ولكنها قالت بتهور أول ما خطر ببالها:

ـ لا أستطيع المضي.. لا أستطيع الزواج به.

وأجهشت في بكاء جاد.

كان المشهد التالي مؤلماً، وغير وقور.. فالعمة، المعروفة بحكمتها ولباقتها، صاحت بما يؤسف عليه فردت كابي بصياح مماثل، وتبادلتا الاتهامات بلا قيود، وانضمت ماري لو إليهما في الصياح تطلب منهما أن تخفضا صوتيهما..

وقفت في الباب عابسة فبدت ببرودتها وطولها كتارغت.

قالت كابي لها:

ـ أنا لست مصابة بهستيريا، بل لقد سمعت يا ماري لو ما قلته أنت ونانسي في الحديقة.

ردت ببرود:

ـ هذا ما أتصوره، يؤسفني أن تسمعي بضع حقائق جوهرية لم تكن موجهة لتسمعيها.. ولكنك راشدة بما فيه الكفاية لتتجاهلي أقاويل عائلية خاصة.

ـ لا.. لن أتجاهلها. إذا كان تارغت يرغب في داندي تلك فليأخذها.

ـ ألا ترين أنك تتصرفين بطفولية؟ لو عرف تارغت أنه ارتكب غلطة لأخبرك.

ـ لا أظنه يخبرني بل لا أصدق أنه يهتم.

ـ في هذه الحالة ألا تظنين أنك غير منطقية قليلاً؟ لماذا الغيرة من امرأة لا تعني له شيئاً؟

ـ عنت له شيئاً في وقت ما.

ـ يا طفلتي الطيبة! تحدث مثل هذه الأمور كثيراً.. ألم تغرمي بعشرات الأشخاص قبل الاستقرار على زواج يحكمه العقل؟

صاحت العمة تحاول الإصلاح:

- الحب؟ وما شأن الحب في تنظيم حياتك؟ أما زلت تفكرين في ذاك الشاب الوسيم الذي لا يريد منك أكثر من علاقة عابرة؟ كنت بعيدة النظر عندما اخترت تارغت؟ حتى ولو أنك عدت إلى رشدك قبل فوات الأوان.. فهل سترمين كل شيء في الهواء في نوبة غضب تعاني منها كل عروس في وقت كهذا؟

- أرجوك عمتي.. أنت لا تفهمين شيئاً.. لقد فتحت أنت ونانسي وماري لو عيني.. أنت على حق ماري لو في الظن أن تارغت لا يحبني.. لكنك قلت إنه يشفق عليّ. إنها النهاية! آسفة! من قد يرغب في الزواج لسبب كهذا؟

ردت ماري لو بحدة:

- لا أدري، لكنك في وضع لا يسمح لك بإثارة الاعتراضات في اللحظات الأخيرة.. أنت وتارغت أعلم بالأسباب التي دفعتكما إلى الموافقة على الزواج.

صاحت كايي بغضب:

- آه! اذهبي من هنا.. اذهبي! لا أريد أن أكون فظة معك في منزلك ماري لو.. لكنني لن أمضي في هذا الزواج ولن يجبرني أحد عليه.

ارتفع حاجبا ماري لو بالبرود المثير للأعصاب الذي يستخدمه تارغت:

- لا أحد يرغب في إجبارك، وآخرهم تارغت.. ومع ذلك أنصحك بعدم تعريضه إلى هذا النوع من المشاهد في آخر ساعة.. لأنه لن يكون صبوراً مع طيش الساعات الأخيرة السخيفة. تعالي ميرا، سنترك هذه الطفلة حتى تسترد عقلها قبل وصول تارغت للعشاء.. سأقلك أنا ونانسي إلى منزلك. كايي.. من الأفضل أن تنامي ساعة طلباً للراحة.

لأن ماري لو ترفض أن تغضب، تركت الغرفة وهي تدفع أمامها العمة الثائرة.. توقفت دموع كايي فجأة.. أتظنان أن ما قالتاه عن طيش الساعات الأخيرة قد يمحي رأيهما فيها؟

نظرت إلى صورة القاضي الناظر إليها بعدم رضى:

- إنهن لا يعرفن شيئاً! لست فتاة من القرون الوسطى تنغمس في خيال هستيري يا سيد غراند كارسون.. لن أقبل أن يدفعني أحد بسبب تحدي كان على ابنك الناضج الراشد أن يكون أكثر حكمة فلا يقبله.. أنا راحلة.. هكذا! فخذ!

مدت لسانها لذلك الشخص الوقور وهذا ما أشعرها بأنها أفضل حالاً.. سمعت صوت سيارة ماري لو تنطلق، لتبعد العمة عن الطريق ولتترك ابنة أخيها، كما تظن حتى تسترد رشدها.

لكن ليس أنا.. ! جرّت حقيبة من تحت السرير.. ستعود إلى سانت كوباي وبالطبع إلى زوي التي لن تتوانى عن الترحيب بها.. ستعود إلى مكان الطفولة حيث ترعرعت مع هارفي.

تسللت من المنزل الصامت، وكانت قبل ذلك قد اتصلت بقسم البرقيات. ظنت وهي تملي رسالتها إلى زوي أن شخصاً ما في الخارج، فصمتت تصغي، لكنها لم تجد أحداً. بعد ذلك وضعت السماعة من يدها، ونظرت من فوق عمدان الدرابزين وعادت إلى غرفتها.. لتبدأ بتوضيب ثيابها.

رسالتان مختصرتان، واحدة لماري لو والأخرى لتارغت.. وأصبحت جاهزة.. ما أبسط هذه الطريقة في الخلاص!

مع ذلك أحست أنها كالمجرم الهارب. ولكن ما إن أصبحت وراء مقود سيارة عتيقة مستعملة اشترتها إثر رهان محظوظ دبره هارفي لها، حتى أحست بالحرية.

انعطفت في عدة منعطفات خاطئة في ضواحي لندن غير المألوفة لها، إنما ما إن تركت الضاحية خلفها حتى بدأت اللوحات تشير إلى أسماء البلدات المألوفة، فاستقرت في السيارة مستمتعة برحلتها. كان رحيلها مفاجئاً وسريعاً بحيث لم تتوقف لحظة للتفكير في المشاكل اللاحقة. تعرف تقريباً عدد الأميال الفاصلة ما بين لندن وكرونويل، ولكنها لا تعرف

الوقت الذي سيمضي حتى تصل.. عندما بدأ المغيب ينزل سدوله علمت أنها اجتازت ربع المسافة فقط. افترضت أن الأفضل لها التوقف في مكان لمبيت ليلتها، وكانت جائعة كذلك. بدأت تفتش عن مكان لتقف فيه، ولكنها لم تجد أمكنة كثيرة لأنها تجنبت التوقف في البلدات. وجدت أن الظلام قد تسلل ليحيط بها من كل صوب والأسوأ أن سرعة السيارة قد بدأت تخف. ظنت أنها بدأت رحلتها بخزان ممتلىء بالوقود ولكنها كانت مخطئة، لم تتلق من السيارة على الرغم من مضاعفة ضغطها على دواسة السرعة إلا المزيد من احتجاجات المحرك الصاخبة فكان أن اضطرت إلى التوقف جانباً قبل أن تلفظ السيارة أنفاسها الأخيرة، ساعتئذ فقط فكرت أن تنظر إلى عداد الوقود الذي أشار إلى أن الخزان فارغ.

صاحت وهي ترفس المقود والدواسات أمامها:

ـ أوه.. اللعن! فلتُبلَ كل الآلات بالطاعون!

كادت تجهش بالبكاء إحباطاً وقرفاً من غبائها.. فأن تتوقف في بقعة ممتدة غير معروفة من الطريق بسبب غباء شخصي لا يمكن تبريره، لعقاب ينذر بشرّ. لقد هربت وكأنها طفلة تتجنب العقاب لكن القدر أدركها. لو حاولت البحث عن كاراج لاضطرت إلى السير أميالاً ولكنها متعبة جداً على القيام بأي جهد إضافي. فتشت عن حقيبة يدها التي تحوي على نصف لوح من الشوكولا.. ولكنها لم تجدها إلى جانبها.. رغم جوعها لم تستطع دفع نفسها للتفتيش في الخلف حيث وضعت حقيبة ملابسها.. ولم تكن محظوظة أيضاً إذ لم تجد من يقلّها. لقد مرت بها سيارتان في نصف ساعة، الأولى تابعت المسير بدون أن تخفف سرعتها أما الثانية فأبطأت سرعتها ولكنها عادت إلى الانطلاق حتى توارت ولعل السبب أن كابي النعسى لم تكن سريعة بما فيه الكفاية لتفتح باب سيارتها حتى تصيح لسائقها.

حملت خيبة الأمل المزيد من الدموع ولكنها صممت على عدم تفويت فرصة أخرى، لذا أخذت تقرص نفسها بين فترة وأخرى حتى تظل

مستيقظة.. بدأت تحرقها عيناها بسبب الجهد لإبقائهما مفتوحتين وبسبب دموع الغضب التي ما تزال متدفقة حتى أعمت لها بصيرتها.. ولكنها أخيراً كوفئت بأنوار سيارة قوية، تأتي من خلفها، فخرجت إلى منتصف الطريق، تلوح بجنون، وبدأت السيارة المتقدمة تبطىء سيرها، ثم وقفت وراء سيارتها.

توقف المحرك، وانطفأت الأنوار وأخرج رجل غامض رأسه وكتفيه من النافذة..

ـ آه! أرجوك!

رد عليها صوت مألوف، بطريقة كسولة:

ـ هل من متاعب؟

برزت ساقا تارغت المديدتان من السيارة الأخرى عندما ترجل من السيارة.

* * *

٢ ـ أرض الطفولة والأحلام

وقفت مسمّرة تنظر إليه وهي تحس برغبة غير منطقية إلى رمي نفسها بين ذراعيه لتعتذر. أضرم لحاقه بها نار البهجة في نفسها، لكن هذه النار سرعان ما خمدت وهو ينظر إلى وجهها المغرورق بالدموع بدون عاطفة أو شفقة حتى.

ـ نفذ الوقود منك على ما أعتقد.. حقاً كابي.. بالنسبة لشخص يقوم برحلة مغامرة طولها ثلاثمائة ميل مجهولة، أنت لم تظهري القليل من التعقل.

اختفى ذلك الاندفاع إلى الإحساس بالراحة بين ذراعيه أمام اندفاع آخر إلى الجدال. قالت بعداء: «لماذا أنت متأكد من أن سبب توقفي ليس عطلاً في السيارة؟».

رد: «السبب يا طفلتي.. أنه الاحتمال الأكبر».

كان في صوته نبرة حنان ولكنها لم تكن في مزاج يسمح لها بالتجاوب معها.

ـ إنه التفوق الرجولي في النظرة إلى النساء السائقات.. وكيف تظن أنك قادر على معرفة عدد الأميال التي أنوي اجتيازها؟

وقف ويداه في جيبيه، ينظر إليها من فوق، لكن الظلام لم يسمح لها برؤية تعابير وجهه..

قال ببرود: «طالما تحدثت عن سانت كوباي، وعن الآنسة جونس

المهيبة، حتى بدا لي الرد واضحاً».

ـ إذن، لقد لحقت بي؟

ـ طبعاً.. فأنا نادراً ما أقوم برحلة إلى الريف بعد يوم مرهق في المحكمة.

أخذت كابي تحرك قدميها كطفلة مرتبكة منشطرة نصفين بين رغبة في المضي بالجدال وبين رغبة في ترك الأمور تخرج من يدها، فمن دواعي الاعتداد بالنفس للمرأة أن يطاردها عريس مرفوض. لو كانت عواطف هارڤي صادقة، لتصرف التصرف ذاته.

سألت بصوت منخفض:

ـ هل جئت لتعيدني؟

جاءها الرد صفعة على وجهها:

ـ لا.. في الواقع ظننتك بحاجة إلى حقيبة يدك.. فمن المربك أن تكوني بلا مال، هذا عدا تلك السلع التافهة التي لا تستغني عنها المرأة، لقد نسيت حقيبتك كما نسيت ملء خزان الوقود. أنت غير كفؤة كثيراً.. أليس كذلك كابي؟

صاحت وهي تكاد تحترق إحراجاً:

ـ لا.. لست كفؤة أبداً. بل أنا حمقاء لعينة.. ولكن بما أنك اجتزت هذه المسافة كلها لتعيد إليّ حقيبة يدي، فلربما تكمل معروفك وتقلني إلى أقرب كاراج.

رد بشيء من الضحك في صوته:

ـ كم تمتعني محاولاتك في تقليد الكبار.. على أي حال، سأقلك إلى كراج بل سأفعل أكثر من هذا، سأقدم لك صفيحتين من الوقود لتساعداك على الوصول إلى أقرب محطة.. اصعدي.

استقرت في المرسيدس الكبيرة بدون أن ترد، وعندما جلس قربها تنهدت بحزن. بدا لها لبرهة أن من المستحيل أن تكون هذه المرة الأخيرة التي ستحس فيها بيده على ركبتها... أرسل ضغط أصابعه، وواقع أنه

يدير السيارة بدلاً من المضي إلى الأمام، رعشة ترقب خفيفة في أوصالها.. ولكنها قالت بريبة:

ـ لماذا تعود؟. هل هذه حيلة لإرجاعي إلى لندن؟

ـ ولماذا تفترضين أنني ذلك الرومانسي الذي يخطف عروساً غير راغبة! إنني أعود فقط، لأنني أذكر أنني مررت بكاراج ما يزال فاتحاً أبوابه. أما إذا تابعنا المسير إلى الأمام فربما بانتظارنا تعقيدات أخرى وأضيفي إلى هذا أن عدد الأميال التي يجب أن نجتازها للعودة ستزداد.

تابعا المسير بصمت حتى وصلا إلى محطة وقود تقبع على مشارف بلدة صغيرة.. فسألته بلطف وهو يقف إلى جانب المضخات:

ـ أيمكن أن أجد محلاً مفتوحاً لأشتري سندويش أو أي شيء يؤكل؟

التوى فمه، متعرفاً إلى ذلك الإصرار على مطالب معدتها مهما كانت الظروف.

أجاب بطريقة تثير الأعصاب:

ـ طبعاً.. لقد نسيت هذا الجوع الدائم لديك.. أفضل ما نستطيع القيام به هو إيجاد فندق أو مطعم في البلدة أما سيارتك فستطلب من أحد الشبان الذهاب إليها لملء خزانها في أثناء تناول طعامنا.. على أي حال، أقل ما قد أفعله هو تقديم وجبة طعام لائقة قبل إرسالك في طريقك..

كان الفندق الصغير، الذي أشاروا عليهما به، مريحاً بشكل مرضي. التهمت كابي كل ما وضع أمامها، وطلبت المزيد بلا تردد.. كانت مدركة أن تارغت يراقبها بتسلية كحاله دائماً ولم يكتف بذلك بل ألقى بعض تعليقاته الفكاهية التي جعلتها تطمئن.. لم يتوقف قط عن استغراب قدرتها على التهام كمية كبيرة من الطعام في جلسة واحدة أو انعدام تأثير أية نكبة أو إزعاج في شهوتها إلى الطعام. وكم قال لها ما يقوله الآن:

ـ لا أدري كيف تأكلين هذا الطعام كله دون أن يزيد وزنك أونصة واحدة.

فسألته، وهي تفكير في طبيعة جسد داندي الكاملة الجمال:

ـ أتفضل النساء الممتلئات؟

رفع حاجبه بطريقته المعتادة ورد بهدوء:

ـ لا أظن الآن أن الأمر يهمك.

قالت بارتباك: «تارغت.. هل سأسبب لك متاعب مع عائلتك؟ أعني إلغاء حفل الاستقبال وما إلى ذلك.. لطف من ماري لو أن تقدم منزلها خاصة وهي لا توافق عليّ. لا أريد أن تظن أنني غير ممتنة لها».

ترك فرصة لصمت مرتبك، بدا خلاله الحزن في عينيه، ثم أجاب:

ـ وهل ماري لو هي الشخص الوحيد الذي يزعجك رأيه؟

أشاحت بصرها عنه مرة أخرى.. بعد لقائهما غير المتوقع، وبعدما رأت لا مبالاته الظاهرة بنتائج تصرفاتها عليه، تستغرب أن يسأل هذا السؤال. قالت دونما ارتياح:

ـ ظننت أنني شرحت لك كل شيء في رسالتي.. فحسبما سمعت أرى أنك لا تهتم بي كثيراً.

ـ ألا ترين ذلك؟ المرء يفضل عادة أن يسمع التفسير من الشخص المعني قبل أن يتخذ أية خطوة في اللحظة الأخيرة ولكن على ما يبدو أن التوقيت لا يهمك فقد اندفعت إلى الفرار بتهور كحالك عندما اقترحت هذه الخطوبة.

أحست بالدم يتصاعد إلى وجنتيها. تصورت لبرهة أنها تمكنت من إيلامه، فلجأت إلى السخط:

ـ ليس لطيفاً منك تذكيري بطيش أفضل نسيانه ثم لماذا قبلت؟ لم تكن مضطراً إلى القبول.

عادت عيناه إلى البرود، ورد:

ـ هذا صحيح.. ما كنت مضطراً إليه. إذن فلننس ما حصل. ماذا سمعت بالضبط؟

ـ ألم تخبرك ماري لو؟ لا يهم الآن وقد أصبحت حراً لتعود إلى داندي.

قال ممازحاً:

ـ أيمكن أنك تغارين كابي؟

ـ بالتأكيد لا..! إنما لا يرغب المرء في زواج أساسه الشهامة المضللة.. ثم هناك شقيقتك نانسي ذات الأفكار القذرة.

ـ يبدو هذا الكلام غامضاً، ولكنه بدون ريب ذو تأثير كبير فيك.. هل هربت وفي نيتك إقناع صديقك القديم بالعودة إليك؟

سألت بذهول:

ـ هارڤي؟ لا يسكن هناك الآن.

ـ حسناً.. هل اكتفيت من الطعام؟ الوقت متأخر.

لا يمكن إخماد الفضول بسهولة في نفس كابي وتذكرت أقوال نانسي العدوانية فقالت:

ـ تارغت.. قل لي ما الذي خططته لشهر العسل فلا أهمية الآن لإخفاء الأمر؟

نظر إليها بهدوء بارد، ورد بصراحة:

ـ ربما لا حاجة بي إلى إخفاء ذلك، حسناً عزيزتي سبق أن قلت إن الوقت متأخر، وبما أن أمامك رحلة طويلة فمن الأفضل أن تتحركي الآن.. أرسلي لنا بطاقة بريدية عندما تصلين لأطمئن إلى وصولك بالسلامة.

أحست بخوف من الإجهاش بالبكاء فجأة، فمهما كان هدف تارغت من اللحاق بها لم تتوقع إنهاء هذه الأمسية هكذا. فسألت بغضب:

ـ ألا يهمك ما قد يصيبني في رحلتي؟ قد تتعطل السيارة في منطقة مستنقعات.. أو قد ينفجر إطار، أو تجنح السيارة في فندق.. أو ينطحني ثور، أو.. أو يهاجمني متشرد..

ـ لا يُحتمل أن تتعرضي للأمرين الأخيرين، إذا امتنعت عن التوقف على جوانب الطريق لتتأملي القمر! أضيفي إلى هذا أنك شابة واسعة الحيلة، وقادرة على التعامل مع أي كمين غير ملائم، أنا واثق من هذا.

جعل رده المثير للغضب الدموع توشك على الانهمار.. فصاحت به وقد ارتعش صوتها:

ـ أظنك إنساناً بغيضاً! هذا كله يُظهر كم كنت على صواب عندما قررت إيقاف كل شيء.. لو كان لديك ذرة من إحساس تجاهي لأصررت على إرجاعي معك.

نظر إليها مفكراً بصمت، وكأنه يوازن دوافعه في قرار صعب. ولكن حينما تكلم كان في صوته لهجة التساهل التي قد يستخدمها مع طفل.

ـ أهذا ما تأملينه؟ إن اعتقدت أنني لاحقتك لأقنعك بالخضوع فأعيدي التفكير ثانية.

ـ كان هارڤي سيقنعني.

ـ هارڤي؟ أوه.. معجبك الذي هجرك. ولكنه لم يظهر لك ما هو جيد، كما قلت لي.. على أي حال، ليس طراز رجال الكهوف الذين تلحق بهم أسيراتهم الباكيات بطرازي.

ـ أنت كريه! لن أعود معك ولو جثوت على ركبتيك متوسلاً، وهذا أمر مستحيل كاستحالة أن أبكي.

ـ أنت تبكين الآن.

ـ قلت لك إنني أبكي من الغضب.

ـ صحيح.. قلت لي هذا، حسناً.. من المخجل ممازحتك في وقت تحتاجين فيه إلى نوم مريح في فراش مريح.. الوقت متأخر على المضي في رحلتك.. سأحجز لك غرفة هنا وفي الصباح قد تستيقظين على آراء معاكسة.

فاتها أن تلاحظ عودة الحنان إلى عينيه، ولم تع سوى التحذير الرافض للجدال في صوته. لو أظهر دليلاً على خيبة الأمل بسبب انتهاء الخطوبة، لما وجدت صعوبة في الاعتراف بأنها قد تسرعت في اتخاذ قرارها.. ولكنه ببساطة يستمتع بمعالجة الأمور كشقيقته اللزجة الأنف..

قالت تحاول تقليد برودة أعصابه:

ـ لن أعيد التفكير. زوي بانتظاري، أما القيادة ليلاً فستمتعني لأنه لم يسبق أن سافرت ليلاً.

ـ لن تبتعدي كثيراً في ذلك الجحر المهترىء القديم.. ربما أنت على حق قد تتوقف سيارتك في منطقة المستنقعات، مع أنني لا أتوقع وقوعك في خندق ما.

نظرت إليه شزراً، بدون أن يلاحظ.

ـ بإمكاني أخذ المرسيدس.

ـ لا أظن هذا.. الآن فلنترك هذا الجدال العقيم.. أنت حرة في الهروب من الواقع. ولكنك الليلة ستبيتين هنا أما أنا فسأعود إلى المدينة.

ـ أتتحداني؟

ـ أتحداك؟ لماذا حباً بالله؟

ـ في أخذ المرسيدس.

هبَّ على قدميه واقفاً يرمي منديل الطعام على الطاولة:

ـ حقاً يا طفلتي العزيزة.. أنا في الواقع أكبر من الاعيب تلاميذ المدارس.. قد أقول إنني أتحداك لو كان التحدي سيضع حداً لهرائك الغبي. اسمعي أنا ذاهب لأحجز تلك الغرفة لك.

ارتفعت روح التحدي عند كايي، فردت على تحديه. دست في قدميها الحذاء الذي خلعته تحت الطاولة، ووضعت رغيف خبز صغير في حقيبتها حتى يكفيها خلال رحلتها، وتسللت بخفة إلى غرفة الطعام ومنها إلى الباب حيث رأت تارغت في الجهة الأخرى من البهو واقفاً وظهره إليها. كان من السهل عليها الخروج بدون أن يراها، فخرجت إلى حيث كانت سيارتها «الموريس» الصغيرة متوقفة قرب المرسيدس.. ريثت عليها قبل أن تتوجه إلى سيارة تارغت الذي كان قد نسي على غير عادته المفاتيح فيها، وما هي إلا لحظات حتى دار المحرك. أرجعت السيارة إلى خلف على عجلة من أمرها ولكنها عندما استدارت في الفناء وانطلقت إلى الظلام، ظنت أنها شاهدت رجلاً يهرع إلى خارج الفندق.. فكرت في أن

خطيبها المهجور لن يحاول اللحاق بها بسيارتها الموريس، التي لن تكاد تقله إلى لندن.

قادت كايي السيارة بنشاط متجدد فالسيارة قوية. ولكن الطرقات الغريبة عنها، أصبحت مهجورة أكثر فأكثر مع هبوط الليل وهذا ما زاد من متعة التحدي والمغامرة. حررها الخزان الممتلىء، والصفيحة الإضافية التي يحتفظ بها تارغت دائماً من أي قلق..

كانت أولى بوادر الفجر قد بدأت بالظهور عندما اندفعت المرسيدس صاعدة آخر تلة شديدة الانحدار، شعرت بألم في أطرافها وبثقل متزايد في جفنيها فتوقفت في بقعة ممتدة لتسترخي في المقعد الخلفي حيث غطت في نوم عميق. وعندما استيقظت كانت الشمس في كبد السماء.. فخرجت من السيارة متثائبة، تنظر بعينين مترقبتين إلى الريف الذي امتدَّ إلى الأفق الوردي في عزلة لا حدود لها.

التهمت نصف لوح الشوكولا وانطلقت مرة أخرى في الحقول وأفكارها منصبة على الفطور اللذيذ الذي ستقدمه زوي. إنها الآن في بلدة نافيشتوك التي ما زالت واجهات محلاتها مقفلة.. ستقف في أول كاراج مفتوح، ثم تنسلق التل وصولاً إلى كرونويل..

لم تكن قيادة المرسيدس الكبيرة سهلة في الطرقات الضيقة ذات الأطراف المرتفعة، عندما جرحت أحد أطراف السيارة شعرت بأنها تسمع صوت تارغت الحاد يوبخها.. كانت الطرقات في مثل هذه الساعة خاوية، وها هي ترى أمامها سقوف منازل بلدة ميربانبورث الصغيرة. تصاعدت الإثارة في نفسها.. البحر شديد الزرقة، الصخور حمراء، الطرقات مرقطة بالظلال الحادة.. لم يتغير شيء. ولكن ما أن تركت البلدة وراءها وانعطفت نحو الطريق الصاعدة حتى طالعتها أكواخ ومنازل ريفية باستنكار فظ.. كانت ترى مباني كثيرة على امتداد الطريق الصاعد إلى التل الذي كان يوماً برياً، بل هناك أماكن للمقطورات والتخييم وأكشاك لبيع المثلجات والآيس كريم.. فهل وصل هذا كله إلى سانت

كوباي؟ وهل أصبحت القرية نفسها مجرد ضاحية لبلدة ميريانبورث؟

كانت هناك خيبة أمل أخرى بانتظارها.. فعلى باب المنزل الحجري القديم، المبنى على مرتفع يشرف على البحر، لوحة جديدة مدون عليها «منزل للبيع».

كبحت كايي سيارتها بعنف وصاحت:

ـ آه! لا.. لا!

أطفأت المحرك وخرجت من السيارة وهي تشعر، أخيراً، بتعب الرحلة. توقعت أن تجد المسكن مقفلاً وزوي مصروفة من العمل، ولكن الباب كان مفتوحاً والجسد النحيل الحبيب يهرع عبر الممر لملاقاتها.

صاحت زوي، بنفاد صبرها القديم:

ـ حباً بالله لماذا تبكين الآن؟

واندفعت كايي تعبة، محبطة إلى ما بين ذراعيها باكية. قالت، وكأن دموع مراهقتها كانت بالأمس لا قبل ثلاث سنوات:

ـ لا شيء على حاله.

أجابت زوي:

ـ وماذا كنت تنتظرين؟ أنت نفسك تغيرت أيتها الشابة، فلا أستغرب تبدل حالك.

احتجت: «ولكنني ما زلت كما أنا!»

في قرارة نفسها تعرف أنها تغيرت، لقد شبّت ونضجت ولكنها أصبحت أشد حزناً.

ردت زوي بحدتها المألوفة:

ـ إذن، لم تتعلمي شيئاً ذا قيمة.. هذه سيارة فخمة لا يمكنك دفع ثمنها وأنت المفتقرة إلى المال دائماً.

ـ ليست ملكي. لقد استعرتها.

ـ وليست لعمتك.. على أي حال أركنيها في سقيفة العربات القديمة ثم توجهي إلى حجرة الغسيل لتنظفي وجهك من غبار الطريق.. لقد انتهى

وقت الفطور عند الناس المحترمين ولكنني لا أشك في أنك تريدين طعاماً.

ركنت سيارة المرسيدس في سقيفة العربات التي لا تتناسب أبداً مع فخامة السيارة وعادت إلى البيت لتمطر زوي بأسئلة لا تنتهي.

طرحت زوي بعض الأسئلة ومنها سؤال عما إذا كان انفصام عرى الخطوبة عائداً إلى شجار حبيبين.. ولكن عندما عرفت أن المسألة هي أن الفريقين اكتشفا الغلطة التي ارتكباها قالت إن العمة طالما أرادت التحليق عالياً.. فسألتها كايي:

ـ ماذا تقصدين؟

ـ حسناً، أفهم منك أن خطيبك كان أكبر منك سناً ومع ذلك اعتبرته العمة صيداً ثميناً.. فهل دفعتك إلى خطوبته؟

ـ ليس بالضبط لكن..

صمتت تفكر في ما ستظنه زوي عندما تعرف أنها من عرض الزواج على تارغت لأن ذلك برأي زوي تصرف لا يليق أبداً بسيدة محترمة، قالت زوي:

ـ لا يدهشني أن يكتشف السيد غلطته قبل فوات الأوان.

صبت زوي البيض واللحم، ووضعت الخبز الطازج من الفرن أمام كايي على طاولة المطبخ.. فكرت كايي أن ما لا يرضي غرورها أن تظن زوي أن تارغت هو من تراجع.. ولكن جوعها الشديد جعلها لا تصحح الخطأ في الوقت الراهن. ونسيت بين مطالب معدتها، وبين رغبتها في المعلومات، أمر تارغت، وسألت:

ـ كيف عرض «تينرز» للبيع؟ أليس وقفاً؟

ـ هذا صحيح، ولكن الوقف ألغي، بسبب حيلة قانونية لا أعرف مدى صحتها. على أي حال، ليس الأمر سيئاً، فالمكان على وشك الانهيار.

ـ ولكن ماذا سيحدث لك أنت يا زوي؟ ألا تعترضين؟

ـ لا فائدة من الاعتراض عزيزتي، وهذا درس ستتعلمينه بنفسك مع

الوقت.

ـ أهذا تهديد أيتها العجوز؟

ـ ربما، فليس من الجيد محاربة القدر.

ـ زوي، لا يمكن أن تتركي منزلك وأنت بهذه السن!

ـ لست عجوزاً إلى درجة أن يضعوني في مؤسسة للعجّز أيتها الآنسة الصغيرة.. فوفري شفقتك لمن يحتاجها.

ابتسمت كابي لها، وقالت بمرح:

ـ آه! لا أظن أن أمراً كهذا سيحدث. فمن قد يرغب في هذا المكان الذي لا تصل إليه الكهرباء؟ من قد يرغب في منزل بحاجة كبيرة إلى الإصلاح؟

ـ سمعت أن هناك راغباً.. ولكن القصر سيباع بثمن بخس بالنسبة للأملاك التي حوله.

ـ من.. من؟

ـ وكيف لي أن أعرف؟ شخص غريب يملك من المال ما لا يتصوره عقل.

ـ لكن.. غرباء في «التيرز»؟

أسندت كابي مرفقها إلى المائدة ونظرت بحزن إلى النقوش المحفورة على طاولة الزينة، وإلى حُزم الأعشاب الطبية الجافة المعلقة فوق المدفأة المحفورة في الجدار وإلى تمثالي الكلبين الخزفيين القابعين على رف المدفأة العلوي وإلى الكراسي المصنوعة من القصب التي تطقطق كلما جلس عليها أحد، وإلى رفوف الكتب المليئة بالكتب القديمة التي نفدت من الأسواق.

حينما نظفتا المكان، ورتبتا كل شيء في موضعه، أرسلتها زوي إلى النوم حتى موعد الغداء. فالقيادة ليلاً، بدل الانتظار حتى الصباح كان تهوراً وجنوناً لم تستغرب زوي إقدامها عليه. اعترضت كابي لمجرد العادة، ولكن ما إن أصبحت في الغرفة الصغيرة حتى أحست بالبهجة. هنا

لم يتغير شيء فما زال السرير حيث هو، وما زال القنديل على طاولة الزينة وما زالت جرّة الزهور الفارغة فوق حمالة المغسلة الرخامية التي هي الآن رمز للنظافة لا للاستعمال.. شعرت بالألم لأن شخصاً غريباً سيشتري هذا المكان ليدخل عليه تغييرات كثيرة.. هذا هو منزلها ولكن ما الفائدة من التفكير في ما لا طائل منه.

فاتها الغداء فقد تركتها زوي نائمة حتى استيقظت بعد الظهر منتعشة، لم تشأ كابي تضييع دقيقة واحدة فسارعت إلى ارتداء جينز وقميص استعداداً للاستكشاف، ولكن قبل ذلك عليها إرسال برقية مجاملة لتارغت، وبطاقة بريدية تعلن فيها عن وصولها بالسلامة. أليس هذا مطلبه هو؟

انطلقت إلى القرية وهي تتوقع أن يذكرها الجميع ويرحبون بها.. ولكن على ما يبدو أن السنوات الثلاث المتصرمة كانت أكثر من كافية للنسيان. المخزن العام الصغير الذي فيه مكتب البريد، تغير موظفوه والسيدة سيمنز غير واقفة وراء الواجهة تلقي نكاتها، وتقدم هدايا الحلوى بل حلّ محلها شخص آخر حوّل الدكان إلى مخزن لبيع البضائع الفاخرة. كان فندق عروس البحر مطلياً حديثاً باللون الأبيض، وثمة شيء آخر جديد فيه هو الطاولات الريفية الخشبية التي وُضعت ليستخدمها الزوار الذين لا يحبون خدمة المقهى الفظة.. تذكر بعض من سكان الأكواخ القديمة كابي، ولكن رغم سرورهم برؤيتها عاملوها كما يعاملون السواح.

في الكاراج الصغير، حيث كانت يوماً تستجدي الركوب خلف السائق على الدراجة النارية، التي يملكها الميكانيكيان الصغيران، أُرسلت إلى محطة الوقود الجديدة، لترتب أمر نقل المرسيدس إلى لندن. ولم تتلق تعاوناً كبيراً من اللندني الشاب العامل هناك، ولم تستطع أن تحصل على موعد محدد للتسليم. فعادت غير مرتاحة إلى مكتب البريد لترسل برقية إلى تارغت، ثم اتجهت إلى الشاطىء تستعيد ذكريات الطفولة.

كان المد مرتداً، والرمال تلمع مهجورة من الجرف الصخري حتى

حافة المياه. نسيت كابي خيبات أملها، فخلعت خفها وحملته ثم وثبت حافية القدمين من بركة ماء صغيرة إلى أخرى وعندما أصبحت فوق الصخور صرخت بوجه طيور النورس التي كانت تصرخ أيضاً فوق رأسها. ضاعت كابي في ذكرياتها لذا عندما اصطدمت برجل لم تدهش. قال لها صوت مألوف:

ـ كابي! ماذا تفعلين هنا؟

ـ هارڤي! هارڤي بورتلاند! لم أعرف.. لم تخبرني زوي..

أمسكها بين ذراعيه ليثبت خطواتها، وظل ممسكاً بها، ينظر إليها بمرح معهود. هو أسمر في الأصل ولكنه اكتسب اسمراراً رائعاً منذ التقيا آخر مرة. كان يرتدي سروالاً قصيراً وقميصاً وكان شعره الأسود الأجعد بلوح تحت أشعة الشمس. لم تره أكبر بكثير من التلميذ الذي طالما مازحها وضاحكها، والذي ملأ رأسها بالأحلام.. وقبل أن تتذكر إذلال لقائهما الأخير، كانت قد عقدت ذراعيها حوله، ورفعت وجهها إليه.

قال وهو يتركها أخيراً:

ـ هل هذه طريقة لائقة لتصرف فتاة مخطوبة؟

ردّها قوله إلى واقعها ولكنها قالت عن غير اهتمام:

ـ لقد فسخت الخطوبة.. وجئت إلى هنا لأقيم مع زوي، ولأنسى أخطائي.

ـ إذن لم تنجح الخطوبة؟ عرفت أنك لن تحلي شيئاً بالقفز من المقلاة إلى النار.. لقد شعرت بعقدة الذنب يا حلوتي عندما قرأت خبر الخطوبة في الصحف.. أحسست أنني دفعتك إلى ما ستندمين عليه.. خطوت خطوة متطرفة لمجرد إيقافي عند حدي.. أليس كذلك؟

ـ لم أحاول إيقافك عند حدك. والآن فلننسى الأمر.. كنت في غاية السذاجة وكان موقفي عاطفياً يومذاك. لقد كبرت كثيراً منذ ذلك الوقت.

ـ صحيح؟ ولكنك لا تبدين لي كبيرة وأنت بهذا الجينز الضيق وشعرك يتطاير حول وجهك.

ـ هذا ممكن.. لكنني في إجازة، ولا أريد إزعاج نفسي بالثياب الفاخرة والماكياج.. أنت أيضاً لا تبدو أكثر أناقة.

ـ وأنا كذلك في إجازة.. لم أقصد التقليل من سحرك الذي لا يمكن إنكاره.. فأنا أجدك مرغوبة كحالك دائماً.

ـ آه.. هارڤي!

أخبرها الدفء في عينيه أن لقاءهما لا يحمل له حرجاً بل اهتماماً متجدداً يسخر مما حدث بينهما.

قال لها: «هكذا أفضل. هل سامحتني الآن؟»

عرفت لحظتئذ أن ما كان يجذبها إليه هو الدافع الجسدي فقط، كما عرفت أن تارغت لو أزعج نفسه بممارسة خبرته عليها في أمور كهذه، لوجدت صعوبة كبيرة في الفرار منه. دفعته عنها بسبب ردة فعلها المتناقضة ووقفت بعيدة تعيد أطراف قميصها القصير إلى ما تحت حزام البنطلون.

قالت: «إنهم لا يصنعون قمصان السيدات طويلة».

ـ أوه.. فهمت.. عندما كنت أصغر سناً كابي، أذكر أنك كنت تخلعين ملابسك وتركضين على الشاطىء بثيابك الداخلية.

ردت ساخطة:

ـ عليك ألا تذكرني بحماقاتي وبطيش الطفولة.

ومضت عيناه: «لا فائدة من إيقافي عند حدي في هذه المرحلة المتأخرة، فأنا أعرف الكثير عنك.. على فكرة، كيف تقبل خطيبك الشهير المتباهي هجرانك له؟».

ردت بلا اكتراث:

ـ بسعادة على ما أظن.. لم يخشى أي منا أن يتحطم قلب الآخر.. فلا داعي إلى التفكير في الأمر.

ـ تصرف عصري، وراشد. في الواقع لا أنوي أن أفكر فيه كثيراً. كنت أبدي فضولي فقط.. كانت أسباب خطوبتك السريعة المفاجئة

واضحة ولكنني لا أتصور أن السيد المحترم كان مضطراً.

ـ حسناً، كان مضطراً. ما حدث أنه كان غارقاً في الحب. أف! لا أريد التحدث عن الأمر.

ـ عظيم..! وهل وافقت على زواج مصلحة مزيف كالذي نسمع ونقرأ عنه؟

ـ بالطبع لا..! نحن سليما الجسم والعقل فلماذا نوافق على شيء أحمق كهذا؟

نظر إليها بحيرة ثم صفعها بخفة على ظهرها.

ـ خيبت أملي يا قطتي.. إذا كان القبول بمعاشرة غريب لا تحبينه لا يبعث فيك القرف، فلماذا أقمت الدنيا وأقعدتها عليّ؟

كانت نظرتها حائرة. إنه يتكلم بجرأته الوقحة العادية ولكنها أحست بجرح في كرامته فردت بلطف:

ـ كان سيتزوجني على الأقل.

ـ أهذا كل ما تريدينه؟ الاحترام الذي يؤمنه خاتم الزواج؟

أجابت بلطف، محاولة طمأنة نفسها، وطمأنته:

ـ بالطبع يساعد الحب كثيراً.. لكن هناك أشياء أخرى في علاقة قد تتوازن على المدى الطويل.

تساءلت لماذا وصلت إلى هذا الاستنتاج غير المتوقع، بعدما فات الأوان.

ـ أهذا ما كان يقوله لإقناعك.. ما كنت تتحدثين هكذا منذ بضعة أسابيع. لو لعبت أوراقي جيداً ولم أستعجلك لما حدث ما حدث.

ـ لا.. ربما لا.. ولكن دعنا من ذر الرماد فأنت وأنا نعرف مواقعنا جيداً. أين تقيم هارڤي؟ وكم ستمكث؟

نظر إليها مجدداً، قد لا تبدو أكبر عمراً وهي تسير إلى جانبه يبنطلونها الجينز الضيق وبشعرها المتطاير ويوجهها الشبيه بوجه القطة. ولكنها بالتأكيد تعلمت شيئاً منذ لقائهما الأخير وهو مهتم بهذا التغيير.

تقبل تساؤلها بلباقة، واختصر لها متسلياً، تحركاته.. لقد خسر عمله في الأستديوهات، وقبل العمل نادلاً في مقهى في مكان رائع على الطريق في «ميريانبورث».

ـ حاولت الحصول على عمل في قصر كوباي الذي حوله أصحابه إلى أحد المنازل الفخمة لاستقبال الضيوف منذ سنتين، ولكن يبدو أنهم يختارون موظفيهم كما يختارون ضيوفهم ولا يقبلون أياً كان للعمل عندهم.

ثم تابع يشرح لها بحقد قليل أن هناك الكثير من الفرص في مثل هذه الأنواع من الأماكن لو عرف المرء طريقة التقدم الصحيحة نحو النساء.. لكن كابي لم تكن تصغي إليه، خاصة بعدما رأت منه وجهاً غير مرضٍ. فأسرة تريڤارتس، مالكة قصر كوباي، بعيدة كل البعد عن القسوة فهي تذكر جيداً أن الكولونيل تريڤارتس كان يعامل جميع أطفال القرية بلطف.

قال هارڤي بنفاد صبر:

ـ أنت لا تصغين إليّ..

نعم كانت شاردة ولكنها كانت مدركة لجوهر ما كان يقوله فقالت:

ـ بل كنت أصغي.. أنت تأمل أن تصطاد نساء ثريات لتقضي العطلة على حسابهن.. ألم يعد العمل باب رزق؟

صفعها على ظهرها مجدداً، وقال إن لا بأس بحسابه في البنك.. ومثل هذا التصريح حوّل أفكارها إليه فسألت:

ـ أكنت تعلم أن أملاك «التينرز» معروضة للبيع هارڤي؟ تلقيت صدمة قوية حينما شاهدت اللوحة!

ـ هذا ما أفهمه.. أتذكرين تلك الخطط السخيفة التي كنا نضعها؟ أن نشتريه بعد أن نكسب ثروة. كم يمكن أن يكون المرء سخيفاً في مثل تلك السن؟

ـ أجل.. أعتقد أن الأمر سخيف.. قالت زوي إن هناك مشترياً.

ـ هذا ما سمعته.. أصبحت عيناك خضراوين يا قطتي. هل أملت أن

أكون أنا الشاري؟

ـ أنا لست سخيفة إلى هذه الدرجة.

أحست بأصابعه تقوم بالمداعبة المألوفة على ظهرها وقال:

ـ لا تكوني واثقة هكذا أنك الوحيدة التي غيّرت ما في قلبها.. لكننا التقينا مجدداً وربما نعود إلى مربعنا الأول.

ـ والمقصد؟

ـ المقصد هو كل ما ترغبين في فهمه يا قطتي.. ألا تذكرين تلك الأماني المقدسة التي كنت تتمنينها عند البئر؟

نقلها استخدامه لاسمها الذي كان يدللها به إلى أيام طفولتهما، فصاحت وملء نفسها الرغبة في العودة إلى التفاهم مع البساطة:

ـ البئر؟ فلنذهب إليه الآن حتى نجدد أمانينا.

ولكنه كشّر عن وجهه، وداعب شعرها:

ـ ليس اليوم قطتي إنها الساعة الخامسة. عليّ أن أعود إلى عملي. أبلغي زوي حبي، وقولي لها إنها ما تزال فتاتي المفضلة.. أراك فيما بعد.

سار متهادياً نحو سيارة رياضية حمراء صغيرة متوقفة قرب فندق عروس البحر، وانطلق بها. أما كابي فتابعت المسير على الممر الصخري الذي سيوصلها في النهاية إلى الطريق، فالمنعطف المتجه إلى «التيترز». كانت تشعر بالتوتر ربما بسبب القيادة ليلاً. ولكن، أليس من الرائع العودة إلى زوي، وإلى غرفة نومها الصغيرة الآمنة؟ أوليس من الغريب أيضاً، والرائع كذلك، أن يكون هارڤي هنا، وكأن السنوات التي فصلتهما لم تكن موجودة؟ وفيما هي واقفة أمام سقيفة العربات لتطمئن على المرسيدس، عادت أفكارها إلى تارغت، ووجدت بدهشة عظيمة أنها تشتاق إلى ما تعودت عليه من انتظار زيارته المقبلة، والطمأنينة الباردة التي لم تعد موجودة.

* * *

٣ ـ كل شيء تغيّر

نقلت كابي رسالة هارڤي إلى زوي، متوقعة سماع ذكريات محببة.. لأنه كان دائماً يكسب ودها مهما كانت أعماله شريرة.. لكن زوي كرهت الإجابة عن الأسئلة.. ترى هل أخبرها عن تلك العلاقة القصيرة العاصفة التي تفجرت إثر لقائهما ثانية في لندن؟ ذهبت كابي إلى النوم باكراً وأفكارها تعذبها.

حينما استيقظت في الصباح كانت جميع الهواجس التي لاحقتها بشكل ضبابي إلى نومها، قد تلاشت.. تسللت أشعة الشمس من النافذة المفتوحة الصغيرة رأساً إلى عينيها فتذكرت أن زوي لا تطيق من يستلقي في الفراش.. فكان أن أسرعت تقوم بالعمل الرتيب اليومي بدءاً من غسل وجهها وصولاً إلى ارتداء ملابسها وبعد ذلك هرعت إلى المطبخ لتحضر فطوراً دسماً يذكرها بأيام الطفولة الخالية من الهم.

قامت بشراء أغراض زوي في الصباح، ثم قررت الصعود إلى المنزل القديم، وقضاء بعد الظهر في استعادة ذكرياتها.. أرادت انتظار هارڤي حتى يرافقها ولكن التغيير الذي طرأ عليه وعلى عاطفتها نحوه جعلها ترغب اليوم في استعادة ذكرياتها على انفراد.

حالما دخلت إلى القصر القديم شعرت بفوارق الزمن. في طفولتها كانت تفكر في التيترز على أنه مسكن مهيب ضخم، أما في شبابها الآن فهي ترى أن الغرف انكمشت، وأن الممرات الغامضة غير مهيبة، بل

وجدت أن المنزل أبعد ما يكون عن القصر.

وجدت هذا الاستكشاف تجربة غريبة، التعرف إلى ما هو عليه لا إلى ما تصورته في خيالها. في أثناء تجولها من غرفة إلى أخرى أحست بالحزن، مع أن كل ما تذكره في مكانه ولكن الموسيقى التي كانت تسمعها مفقودة..

فجأة لمحت نفسها في مرآة ثقيلة معلقة على الجدار. حدقت إلى انعكاس صورتها بعينين مذهولتين: ها هي تلك الطفلة التي كانت يوماً، نحيلة لعوب، ترتدي جينز مهترئاً، قصيراً جداً وتعقص شعرها الأحمر كذنب حصان. ولكنها الآن ليست تلك الطفلة. لقد وجد هارڤي الفتنة في وجه القطة هذا، ترى ماذا وجد تارغت فيه؟

قفلت راجعة إلى الكوخ باختيال ولكن ما إن كادت تمر بالإسطبل حتى لاحظت أن أبواب السقيفة مفتوحة، فتوقفت عابسة. في الداخل شخص ما يتفحص المرسيدس، تذكرت ذلك اللندني البغيض الذي شك في وجود مثل هذه السيارة وحدجها بنظراته من جينزها القصير إلى شعرها غير المصفف. ارتدت نحو السقيفة مستعدة لمعركة، بل كانت تتطلع شوقاً إلى إراحة مشاعرها المتوترة بتوبيخ مبرر.. شاهدت جسداً طويلاً منحنياً فوق غطاء محرك المرسيدس يعبث بأجزائها الداخلية بمفتاح براغي.

صاحت بغضب:

ـ ما أنت فاعل بالله عليك يا هذا؟

استقام الغريب ببطء ثم استدار.

ـ حقاً كابي.. ما هذه اللغة؟

كان تارغت واقفاً أمامها رافعاً حاجبيه بدهشة. ولأنه كان في أفكارها لم تدهشها رؤيته:

ـ هذا أنت! ظننتك متطفلاً مزعجاً يتلصص.. ثم لمّا رأيت ظهرك منحنياً على المحرك، ظننتك تقوم بالتخريب.

ضحكت بفرح، ثم تذكرت أنه آخر شخص تتوقع رؤيته.

ـ ماذا تفعل هنا في سانت كوباي؟

شعرت بأنه لم يتوقف لحظة عن ملاحقتها.. ولكنها انتفضت عندما رأت البرود الواضح في عينيه.

ـ جئت آخذ سيارتي.. فهل حسبتني ألحق بك؟

حركت قدميها بارتباك كطفل يُهزأ منه.

ـ لا بالطبع لم أتصور ذلك.

ـ لم تتغيري إطلاقاً حتى بعد عودتك إلى ربوعك. أرى أنك لم تفقدي براعتك.

أحست فجأة أنها تتمنى لو تعود ثلاثة أيام إلى الوراء إلى ما قبل ذاك الحديث الذي دفعها إلى الفرار، فتارغت يشكل بالنسبة لها نوعاً غريباً من الأمان، حتى تمنت لو يفقد أعصابه، ويوبخها لأنها خدشت سيارته، لكن كل ما وجدت نفسها قادرة على قوله كان:

ـ لقد قبلت التحدي تارغت، لذا ما كان عليك أن تستغرب عندما أخذت المرسيدس.

ـ لا يدهشني شيء تفعليه كابي.

ـ لا يدهشك شيء؟

ـ نعم، لا يدهشني شيء.. مع ذلك نحن الآن غير مقيدين باتفاقية زواج قد يكون لي فيه وجهة نظر أخرى.

سألت بفضول:

ـ ولماذا قبلت بالخطوبة؟

ـ هيا الآن كابي.. لست ذلك الفظ الذي يرمي عرض سيدة في وجهها.. ثم، كان الأمر تحدياً.

أحست بأنها عادت إلى أرض مألوفة، فردت بحدة:

ـ أضف إلى ذلك ابتلاءك بالحب.

ـ حتى أكون صادقاً أقول إن ذلك صحيح. ولكن كلمة ابتلائي بالحب تبدو قديمة الطراز.. لكنك كنت أيضاً مبتلية بالحب، لذا لا يمكنك

معايرتي بفشلي.

ردت كايي وأنفها في الهواء:

ـ لست ممن يستسلم، مهما كان سوء حظي..

في الوقت نفسه ارتفع صوت من المدر الخارجي للمنزل صائحاً:

ـ مرحباً قطتي! أصحيح أن عندك مرسيدس مخبأة في سقيفة العربات؟

التفتت نحو هارڤي سعيدة بما سيلهيها عن تارغت:

ـ هارڤي!

قبل لحظات كانت تتمناه بعيداً أميالاً عنها أما الآن فترحب بقدومه.

كان يدوس العشب المرتفع في طريقه بلا اهتمام وكان يبدو واثقاً ووسيماً بشكل لا يصدق، بمظهره الغجري الأسمر المتضارب مع البنطلون الأبيض والقميص.. نظر إلى المرسيدس وصفّر بهدوء ثم قال:

ـ يا إلهي كايي، هذه سيارة رائعة.

ردت بكلمات موجزة.

ـ إنها ليست لي.. استعرتها.. وهذا هو مالكها السيد تارغت كارسون الذي جاء ليأخذها.

قال بسهولة وقحة:

ـ يا الله! لا تقولي إنه النائح السابق..؟ كيف حالك سيدي.. أستطيع القول إن نظرتي قاتمة إلى فتاة لم تتخلَ عني فقط بل خدشت سيارتي أيضاً.. لكن كايي لم تكن قط ممن يحترمون أملاك الآخرين.

راقبتهما يتصافحان، فتساءلت كيف سيتجاوب تارغت مع أسلوب هارڤي الخاص الوقح.. ولكن وجهه لم يبُح بشيء.. كانت قد خبرت ذلك التحفظ المهني الذي يعامل به زبائنه، أو أي متطفل على حياته الخاصة.. عندما رد التحية، لم يزعج نفسه بالتعليق.. ولكن أدهشها أن تلمح ارتباكاً في تعابير وجه هارڤي، الذي قال متحدياً إلى كايي:

ـ أردت أن أتجول معك في المنزل القديم قطتي، لتشارك بهجة

الذكريات.. لماذا لم تنتظري؟

قالت بشبه بؤس:

ـ لم نقل إنك قادم اليوم، ولو أخبرتني لانتظرتك..

قاطعها تارغت وفي صوته ذلك البرود المهذب الذي تعرفه جيداً:

ـ أعذراني لأنني أقاطع ذكرياتكما.. أود أن أنطلق في طريقي.

قال هارڤي:

ـ أنا المتطفل على ما أخشى.. سأذهب لأتناول فنجان قهوة مع زوي فيما يودع أحدكما الآخر.

شد شعر كايي، ثم ابتعد مصفّراً.

أنزل تارغت أكمام قميصه بدون أن يتكلم ثم ارتدى سترته، اكتشفت كايي وهي تراقبه، بدهشة، أنها المرة الأولى التي تراه بدون سترته.. سألها وهو يرى اهتمامها وحيرتها: «فيمَ تفكرين؟»

ـ كنت أتساءل عما تفكر أنت فيه؟

ـ أتريدين حقاً أن تعرفي؟

ـ طبعاً، وإلا لما سألت.

ـ كنت أفكر فقط أنني أجد من المثير للاهتمام أن تفقدي قلبك مع هذا الشاب.

لم يكن هذا ما توقعت سماعه منه ولكنها أحست بأن هارڤي قد ترك في نفسه انطباعاً جيداً.

قالت: «لم يعجبك.. أليس كذلك؟»

هيأت نفسها للدفاع عن هارڤي، ولكنه ابتسم لها بتساهل.. ورد عليها:

ـ أنا لا أحكم عادة على الناس بمثل هذه السرعة.. إنه شاب غير آمن على الأرجح، يحب إظهار نفسه، وهذا ليس أساساً لفضائله التي قد تكون متعددة.. لكن لدي نقطة يجب أن أحددها قبل أن أغادر أيتها السيدة الشابة..

- نقطة تحددها؟

- أذكر أنني حين أشرت إلى أنك تفرين لتعودي إلى حبك الأول على أمل أن يغير رأيه، قلت لي إنه لا يسكن هنا.

- لم يكن.. أعني لم أكن أعرف..

كان من الممكن أن تشرح له الأمر بلا إحراج ولكن بسبب الاحمرار المتصاعد إلى وجهها بسرعة، موجة إثر موجة، لم تكمل الشرح.

راقب توردها باهتمام، ثم قال معلقاً:

- إنها خدعة غبية.. إنما ربما كنت تحاولين ألا تجرحي مشاعري.

- لا.. أبداً! فليس لديك مشاعر لأنقذها!

- هذا تلاعب خبيث بالكلمات.. على أي حال، لم يكن لديك عذر.

قالت، وضميرها يخزها:

- تارغت.. لم أقصد قط أن أسبب المتاعب.. كنت فقط.. إن أخبرتك ماري لو أو ناتسي بما قالتاه تفهم لماذا لا أستطيع المضي بالزواج.

- لا أعتقد. فهمت من رواية ماري لو أن العرائس الصغيرات يصبن دائماً بنوبة تردد في آخر لحظة.. هذا ما عرفته.

- لم يكن السبب مجرد تردد.. فأنت أحببت دانتي، وهي الآن حرة.

- هكذا إذن.. ألهذا ترغبين في قضاء صيف حنون برفقة صديقك المميز.. حسن جداً كايي.. كل ما علينا هو الانتظار حتى نرى؟

وقفت تنظر إليه بقلق.. بدا أنه رمى حمل خطوبتهما المحطمة بكل خفة عن كتفيه.

قالت عاجزة وهي تشعر بأنهما وصلا إلى مفترق طرق في هذا التبادل غير الكافي لوجهات النظر:

- ألن تدخل لتقابل زوي ولتتناول فنجان شاي قبل ذهابك؟

فتح باب السيارة، ثم قال:

- لقد قابلت الآنسة زوي الشهيرة، واحتسيت معها فنجان شاي وذلك

عندما كنت تقومين بجولتك العاطفية في المنزل.

- آه، وهل أخبرتك أن المنزل معروض للبيع؟

- شاهدت اللوحة.. أيزعجك الأمر؟

- أجل.. أجل.. علبة الموسيقى مفقودة..

كانت كطفلة فقدت لعبتها المفضلة. تقدم تارغت إليها يضع يده على رجتها ثم قال بهدوء ولطف:

- من الخطأ العودة، فالأشياء تتغير ونحن أيضاً نتغير.. الأوهام سريعة الزوال دوماً، والفقاقيع يسهل تفجيرها.. لا تبني أوهاماً كثيرة على ما لم يكن موجوداً أصلاً.

نظرت إلى وجهه الهادىء. كانت تحس بالدموع تخز جفنيها:

- أنا لست ساذجة إلى درجة أن أتوقع المعجزات.

وابتسمت له.

- ألست ساذجة؟ حسن جداً.. استمتعي بزيارتك طفلتي.. وتعلمي، علك تكبرين قليلاً.. طلبت عمتك مني أن أقول لك إنها مسافرة إلى الخارج، فلا تتوقعي رسائل منها.. والآن، يجب حقاً أن أذهب. ستجدين سيارتك القديمة، التي يجب أن أعترف أن من الممكن الاعتماد عليها، متوقفة أمام المسكن، والآن أتمنى لك حظاً سعيداً.

- لكن من المرهق أن تجتاز هذه المسافة ثم تعود فتجتازها ثانية في يوم واحد.

- بعدما سرت في هذه الآلة التي ترهق العظام يستحيل عليّ العودة. سأبيت ليلتي عند أصدقائي.

لم تسأله عن أصدقائه الموجودين في هذه المنطقة لأن لا شأن لها بذلك.. ولكنها لاحظت بندم غير عادي، الخطوط الحادة حول فمه وعينيه، ودلائل التوتر على بشرته المشدودة فوق عظام وجهه.. فقالت وهي تشعر بالذنب:

- تبدو متعباً تارغت.. أكنت تعمل بجهد؟

- العمل يتضاعف في نهاية الفصل القضائي، سنستريح عندما تعلق المحاكمات يوم الثلاثاء.

الثلاثاء.. إنه موعد زواجهما.. نظرت إليه بسرعة متسائلة عما إذا كان مثلها قد أحس بغصة ندم.. لكن وجهه رسم نظرة مجردة لشخص متلهف فقط على الرحيل.

سألت، لأنها تريد أن تستبقيه بضع لحظات أخرى قبل مواجهة أسئلة هارڤي المحتمة، وملاحظاته الحادة:

- وبعدها؟

دخل إلى السيارة التي أخذ يرجعها بحذر إلى الفناء. ثم رد بشكل غامض من النافذة المفتوحة:

- بعدها؟ سآخذ عطلة.. وداعاً.. اعتني بنفسك.

لوح لها مودعاً ثم ابتعد بدون أن يقول كلمة أخرى. راقبته كابي يقود بصبر وبراعة، ثم ما لبثت الأضواء الحمراء الخلفية أن توارت.

كان هارڤي قد رحل عندما عادت فشعرت للمرة الأولى بالغبطة لأنه رحل.. وجدت زوي متمنعة كعادتها عن السؤال أو عن إبداء الرأي. غير أنه بدا لكابي أن تجاهل ظهور تارغت غير المتوقع قد يعطي انطباعاً خاطئاً لها ولردة فعلها..

قالت بمرح: «حسناً.. ما رأيك بخطيبي السابق زوي؟ أراهن أنك دهشت لرؤيته».

ردت زوي من بين كومة الثياب التي تريد رتوها.

- إنه سيد مهذب، لبق الحديث.. اكتشفنا أن والده يعرف عائلتي فأمضينا الوقت في الحديث عن ذلك.

أحست كابي بالسخط:

- وكيف عرف عائلتك؟ لماذا لم يخبرني سابقاً؟

رفعت زوي نظرها بسرعة عن خياطتها، فإذا عيناها الكئيبتان الباردتان تحملان وميضاً خاصاً.

- إنه والده.. القاضي، أيتها الشابة أما أنا فلم ألتق بأحد من أفراد عائلته.

- أوه!

- للقاضي صلات في منطقة كرونويل تعود إلى الماضي وكان السيد كارسون يمضي عطلاته في طفولته في «الدوتشي».

رددت كابي مرة أخرى:

- أوه!

ولكن في هذه المرة كانت نبرة صوتها ميتة. لمن الغريب أن تكتشف زوي في فترة قصيرة عن تارغت ما لم تكن تعرفه هي نفسها. قالت ما تفكر فيه فتلقت رداً حاداً:

- حسناً.. ربما لم تنعي نفسك لتعرفي شيئاً.. فأنت متعلقة جداً بطفولتك لتهتمي بطفولة غيرك.

جلست كابي جامدة أمام النافذة.. ثم قالت:

- زوي.. أريد أن تعرفي.. أن فراري ليس مجرد تهور سخيف وليد لحظة. لقد سمعت أختاه تتحدثان، لقد قالتا أشياء لا تغتفر عني ولكنني عندئذ أدركت خطئي.. لقد عرفت أن تارغت أحب فتاة أخرى كانت غير حرة ثم تحررت.. ولأنني لم أحبه بتلك الطريقة، ترددت ثم هربت.. فلا توبخيني.

- همم.. هل هربت إليّ أم إلى هارڤي؟

- لم أكن أعرف أنه موجود هنا.. صدقاً! أكنت تعرفين بمسألة علاقتي بهارڤي؟

- أعرف وسائله التي يعتمدها مع الفتيات.. إنه يفتن الطير في عشه، ولكن ليس فيه جوهر حقيقي!

- ما هذا الكلام الغريب.. ظننتك تحبينه.

- بوسع المرء أن يحب بدون أن يكون أعمى البصر والبصيرة، هذا ما عليك أن تتعلميه، أيتها الشابة.. فليس الحب أبداً هو رؤية القشرة دون

اللب أو سماع الكلام المعسول فقط.

- لم تكن الكلمات معسولة إلى حد التغلب على حيرتي وترددي القديم.. في الواقع، أصبت بصدمة.

- هذا محتمل ولكنه غير كاف للقفز مباشرة إلى ذراعي رجل مهذب، طيب الأخلاق لم يشأ رفض عرضك.

بدأ غضب كايي يتحرك فقالت:

- تارغت ليس ذلك الطيب الذي يورط نفسه من أجل الشهامة فقط.. لقد ابتُلِيَ بالحب، ولم يكن عابثاً بشيء.

ردت زوي بعدم اهتمام:

- أصحيح هذا؟

قفزت كايي عن مقعد النافذة لتخرج من الغرفة.. أحست بحاجة مفاجئة إلى الاطمئنان، إلى أذن صديقة تصغي إلى أحزانها، قررت أن ترتدي أفضل ثيابها وتفاجيء هارڤي في عمله في المقهى في ميريانبورث حتى تسترد الشعور بلذة الحياة الرغيدة التي ولدتها تلك العلاقة القصيرة..

قالت زوي وهي تراقب أناقتها بعد ساعة:

- آه.. إلى أين يا ترى وأنت مزينة كشجرة الميلاد؟

- لأرى طبيعة المكان الذي يعمل فيه هارڤي، هل لديك اعتراض إن خرجت أتعشى؟

- لِمَ لا؟ قيل لي إنهم يقدمون طعاماً رائعاً بأسعار خيالية.. إن لم ترجعي قبل العاشرة تركت لك المفتاح تحت الحجر.

تلاشت الشجاعة التي حاولت التظاهر بها أمام العجوز فكان أن سعت إليها تضمها بامتنان.

- زوي العزيزة.. أنت تبعثين الاطمئنان إلى قلبي.

- إن كنت تسعين إلى الطمأنينة، فقد أخطأت اختيار الرجل.

ولكنها ردت العناق بعناق حنون.

كان «الجولي روجر» قادراً حقاً على اجتذاب السواح المميزين لأنه

هو أيضاً مميز.

وقفت كايي لبرهة مترددة لأنها غير معتادة على أن تكون بلا رفيق. أحست للحظة بالخجل ولكن في تلك اللحظة لمحها هارڤي الذي صاح بدهشة حقيقية:

- هاي!

أشار إليها أن تجلس على مقعد مرتفع وانشغل بها عن خدمة الزبائن..

قال: «ماذا تتناول سيدتي، على حساب المحل؟»

انحنى لها باحترام مبالغ فيه، ثم تابع خلط الكوكتيل بالخلاطة اليدوية.

قالت: «أنت بارع في ذلك.. لكن يا له من مكان مرهب!»

- أليس مبهرجاً كثيراً؟ ولكنه مكان مناسب للسواح.. كيف حالك الآن قطتي؟ لم أتوقع رفقتك بهذه السرعة، لكن ربما أنت بحاجة إلى تغيير الجو بعد مقابلة خطيبك السابق المأسوف عليه.

ردت بنفاد صبر:

- تارغت ليس ميتاً، أو شخصاً مأسوفاً عليه.

سرعان ما تغير تعبير وجهه من السخرية إلى المطالبة:

- إنه ميت بالنسبة إلى زوج متوقع.. ولكنني مسرور لأنه غير مأسوف عليه.. قد تكون الصدفة أو القدر هو ما جمعنا مرة أخرى.. ولكنني لن أتركك بسهولة في هذه المرة فاحذري.

إنه قول طالما رغبت في سماعه منه ولكن التجارب السابقة جعلتها قلقة.. فهي لن ترتكب الغلطة ذاتها ثانية.

قالت وهي تأمل أن تبدو خبيرة:

- لقد تحررت من تأثيرك.. أعتقد أنني كنت أعيش فترة مراهقة ملؤها الشاعرية والأوهام لكن ذلك مضى وانتهى.

- صحيح؟ هل انتهى يا قطتي؟ أعترف أنني أخطأت عندما افترضت أن

الطفلة الصغيرة التي كانت تعبدني، كبرت وعرفت طريقها ولكنني لا أصدق أن الوثب إلى أحضان خطيب والفرار منه في وقت سريع يعني أنك تغلبت على ولعك بي..

وهذا صحيح، طبعاً.. ولكن ماذا قالت زوي؟ ليس الحب رؤية القشرة دون اللب أو سماع الكلمات المعسولة فقط.. إنما الكلمات المعسولة هي المخدر الذي يخدّر مشاعر المرء.

جلست تحتسي العصير شاردة الذهن.. كانت ترى نفسها في المرآة الطويلة خلف المنصة. تأملت للمرة الثانية في ذلك اليوم صورتها بفضول واستغراب.. لم يحدق إليها الآن شبح الطفلة التي كانت، بل امرأة أنيقة رفيعة المقام، ترتدي أحد فساتين العمة. عبست كابي لصورتها وأشاحت وجهها بسرعة، متمنية لو أنها لم تأتِ إلى هنا أصلاً.

قالت لهارفي عندما اقترب منها مرة.

ـ أنا ذاهبة الآن.

ضحك لها:

ـ آسف إن شعرت بأنني أهملك جميلتي، ولكن عليَّ تقسيم تودّدي بينك وبينهن، فهذا ما أقبض أجراً عليه.. خذي كأس عصير آخر وحاولي التظاهر بمظهر الزبونة غير المبالية.

ـ لا.. شكراً لك.. في الواقع لا أشعر بأنك تهملني ولكنني لا أحب هذا المكان.. إنه مزيّف.. ثم، أنا جائعة.

ـ كالعادة. أذكر جيداً. حسناً.. بإمكاني إحضار وجبة خفيفة تأكلينها على المنصة، فالعشاء هنا غالي الثمن.

جلب لها الهامبرغر كالعادة وكانت أثناء غيابه قد تأملت هذا المكان الذي سعى منه أصحابه بالبهرجة والزينة الخادعة إلى جذب السوّاح. وردّ على تساؤلها:

ـ لكننا في هذا العصر نعيش على الخداع، فبدونه لن تكسبي كثيراً. أؤكد لك قطتي أن المكاسب كافية هنا وكذلك الصيد الوفير.

ـ سبق أن أخبرتني إنما أي نوع من الصيد تقصد؟

ـ كل الأنواع. هل تغارين من فتيات صغيرات، ضجرات، يمتعن أنفسهن بقليل من العبث مع عامل مقهى وسيم؟

ـ أبداً.

بدت دهشتها بوضوح فعبس ثم ربت على يدها:

ـ لا أصدق قولك.. ولكنها محاولة جيدة. كنت أمازحك بالطبع.. للشخصيات التي تقصد هذا المقهى علاقة بالعمل المسرحي، لذلك لا داعي إلى الغيرة.

ردت كابي ببرود:

ـ تتكلم وكأن لي خياراً على عواطفك.. أنا لم أقصد هذا المكان إلا لأقول مرحباً.

ـ مباشرة عقب اجتماعك مع المرحوم المأسوف عليه الذي وجّه لكمة إلى غرورك. إن جوعك إلى التسلية هو رد فعل طبيعي لامرأة شابة، ولكن اعلمي أنني سأحاول الاستفادة منه في الأيام القادمة.

نظرت إليه بصمت مذهول.. لقد وضع أصبعه على الجرح تماماً..

قالت مجدداً وهي تمسك حقيبة يدها:

ـ يجب أن أذهب.. أخطأت عندما قصدت هذا المكان. لقد حدثت تغييرات عدة معظمها قبيح. تغيرت سانت كوباي عما كانت.. نال تارغت إن على المرء ألا يعود إلى أرض الطفولة وأظنه كان على حق.

ـ تارغت.. تارغت! إنسي الرجل حباً بالله!

مال فوق المنصة ليمسك بمعصميها:

ـ لم يتغير شيء.. فما زالت أحلامنا القديمة هناك.. وسأظهر لك أن بإمكاننا استعادتها بل بإمكاننا دفعها إلى النجاح. الصيف أمامنا، وعرضي ما زال سارياً إذا رغبت فيه يا حلوتي. ما زلت قطتي التي كانت منذ زمن بعيد، وستظلين هكذا حتى نصبح معاً على استعداد لإعادة التفكير ثانية.. هه؟

بدا قانعاً بعدم الرد، أو ربما قرأ الاعتراف في عينيها، فترك معصميها، وبدأ يجمع الكؤوس الفارغة.. قال بعذوبة:

ـ لا تعودي إلى هنا مرة أخرى قطتي.. فستزعجك مراقبتي وأنا أعمل مع الزبونات الثريات.. فلنحافظ على أحلامنا الخاصة، وعلاقتنا الخاصة. اسمعي غداً يوم عطلتي.. فهل نذهب إلى بئر الأمنيات لنبدأ من جديد الوعود والأمنيات والطقوس القديمة المنافية للعقل؟

ـ أجل هارڤي.. أجل!

فجأة أحست بأنها تنتقل إلى الماضي بل كادت تميل فوق المنصة لتقبله بغض النظر عن المكان الذي هي فيه لولا ابتعاده عنها لتلبية نداء أحد الزبائن.

وجدت نفسها وهي عائدة إلى المنزل تسخر من غرور هارڤي الذي ظنها ستغار إن عبث مع نساء جميلات.. أحست فجأة بأنها تحررت من الماضي.. ولكنها أثناء القيادة إلى سانت كوباي، تساءلت بفضول شديد، أين سيمضي تارغت ليلته، وأين سيذهب في عطلة الصيف بمفرده!

* * *

٤ ـ الأمنية المستحيلة

كان اليوم التالي ممطراً، فقد فيه هارڤي الاهتمام ببئر الأمنيات واقترح الذهاب إلى السينما، فقالت كايي بلهجة اتهام:

ـ ما كانت بضع قطرات من المطر تزعجك سابقاً.

ضحك: «سابقاً كان للأولاد.. أما اليوم فللكبار وأنا أحب راحتي.. أضيفي إلى هذا أن دار السينما تعرض أحد أفضل الأفلام التي شاركت فيها، بإمكاننا الجلوس للإعجاب بصورتي والإمساك بأيدينا في الظلام».

ـ أعرف ما هي صورتك في الفيلم عن ظهر قلب.

في أثناء جلوسهما في السينما افترضت أن مشاهدة هارڤي لنفسه على الشاشة، أهم بالنسبة له من التجول في الكهوف. ولكنها كانت قد فكرت كثيراً في السير معه خلال المطر والإبقاء على موعد لقائهما عند بئر الأمنيات، حتى ولو كان ذلك لمجرد الضحك على ذكريات الطفولة.

تناولا بعد الفيلم الشاي في البلدة ولكنه لم يتحدث إلا عن الفيلم ودوره فيه.. حاولت كايي أن تقول رأيها بصراحة فدوره قصير ولكنه لم يبرع في تمثيله. نظر إليها بحرد لأنها لم تشجعه، لكن كايي، كطفلة حرمت من متعة متوقعة، أحست بضياع الوقت، وكادا يتشاجران. كانا متخاصمين عندما أقلها إلى سانت كوباي. اعتقدت أنه سيتجاوز البقعة التي في أعلى التل حيث اعتادا الوقوف لمراقبة الأمواج المتكسرة، ولكنه فجأة استخدم المكابح غير عابىء إن كانت وراءه سيارة.

جذبها بخشونة إليه ثم قال:

ـ الآن.. اصمتي ولنبدأ العمل.. أتظنين أنني لا أعرف ما يزعجك؟ أنت ترغبين أن أغازلك.. وهذا ما يناسبني كثيراً.. لم تكوني متعاونة من قبل، ولكن ربما علمك المأسوف عليه شيئاً بعد هذه المدة.. ابقي هادئة.. اللعنة عليك!

كانت مقاومتها عفوية. وقد أتت بعد محاولة أرادت فيها التجاوب مع الحرارة التي أحست بها مرة معه، ولكن ما أدهشها أن تضطر للمحاولة.

تركها فجأة ثم قال بغضب:

ـ كان لديك شيئاً تقدميه منذ وقت غير بعيد، أما الآن فليس لديك شيء.

ـ وأنت كنت تملك الرقة.

تجهم وجهه فجأة، ففكرت: ألا يفهم أن الرغبة الوحيدة التي جعلتها تبدو معارضة هي الرغبة البسيطة في استعادة ذكريات السعادة؟ أحست بشيء من الخجل لأنه اعتبر معارضتها إحباطاً جسدياً..

قال وهو يعبث بشعرها:

ـ لا بأس يا قطتي.. ترى ما طبيعة نسرك القانوني، أم لا يحق لي أن أسأل؟

ـ لا.. يجب ألا تسأل! فحياة تارغت الغرامية شأنه الخاص، وكذلك حياتي.. لذا أصمت! ولنكمل الطريق إلى منزل زوي حتى نرى إن كان بإمكانها قراءة طالعنا.

ولكنهما لم يجدا زوي في مزاج رائق، وقد قالت لهما:

ـ قطعت ثلاث أوراق قبل قليل، ولم أجد فيها خبراً.. يا آنستي الصغيرة.

تعرف كايي أن العجوز لا تلجأ إلى هذه الطريقة في الكلام إلا عندما تكون غير راضية.

هز هارڤي كتفيه:

ـ حسناً جداً.. إذن رافقيني يا قطتي إلى السيارة، فعلى ما يبدو أن زوي لن تدعوني إلى العشاء.

رافقته كايي إلى باب الكوخ. وهناك نظر إليها فشعرت بعودة الجاذب الجسدي المألوف.. أهذا هو الحب؟ إنه مجرد حاجة جسدية؟ لا ريب أنه قرأ شيئاً من الحدة في وجهها، إذ جذبها بين ذراعيه بثقة مرة أخرى. وتمتم:

ـ أرأيت؟ أنت تريدينني بمقدار ما أريدك.. كنت تلعبين فقط دور صعبة المنال في السيارة.. ما أسخفك كايي تقطعين أنفك نكاية بوجهك، ستأتين إليّ متوسلة قبل مضي هذا الصيف.. سترين.

لا.. لم يفهم. ولكنها مع ذلك استسلمت إلى عناقه قليلاً قبل أن تنسحب، ففي هذه المرة كان لطيفاً، أو ربما أحست بالراحة لأنها عرفت أنه يريدها.. ولكنها هزت رأسها رفضاً حين حثها إلى التوغل في الحديقة، طلباً لوداع ليلي حقيقي. ضحك لرفضها ولكنه تخلى عن إقناعها.

ـ لا..؟ حسناً.. ربما أنت على حق. فهناك الغد دائماً. اذهبي إلى النوم واحلمي بي.. نامي جيداً يا حلوتي، تصبحين على خير.

يوم الأربعاء.. انطلقت بسيارتها بعد الفطور وفي نيتها شراء بعض الكتب الحديثة. وجدت بائع كتب في شارع خلفي صغير، فراحت تستعرض الرفوف وما عليها من كتب، حتى انقطعت متعتها لأنها تذكرت فجأة تارغت، فهو من علمها لذة القراءة والغوص فيها، وهو من أعارها الكتب وشجع ذوقها الذي لم يكن ناضجاً. أقفلت الكتاب الذي كانت تتصفحه بحدة وتوتر، ثم استدارت بسرعة فاصطدمت بقوة بشخص يقف ويتصفح الكتب أيضاً.

اعتذرت بأنفاس مقطوعة، ثم انحنت تلتقط الكتاب الذي سقط من يدها.

ـ أوه! أنا آسفة.

يد الغريب التقطته قبلها، ولكنها لم تُدهش عندما سمعت صوت تارغت الذي يقول:

ـ لا تفكري في الاعتذار آنسة جوردون.. فطالما كنت متهورة بتحركاتك.. ما كان عليّ الوقوف في طريقك.

استقامت ببطء، تنظر إلى الوجه المألوف.. كان أول ما تبادر إلى ذهنها أنها كانت ستكون زوجته الآن لولا فرارها.. بالأمس كان موعد زفافهما، واليوم كان مفروضاً أن يكون هذا الغريب زوجها. شعرت بأنه قرأ أفكارها وكأنها مكتوبة على وجهها.. لم تساعد التسلية الباردة التي تسللت إلى عينيه الكسولتين في بعث الطمأنينة إليها. شعرت بأن من المخزي أن يكون تارغت قادراً على بعث الاحمرار إليها في الوقت الذي لم تؤثر فيها إطلاقاً محاولات هارڤي.

أخيراً قالت: «إن عادتك في الظهور عندما لا يتوقعك المرء لغريبة، ماذا تفعل في «ترورو» بحق الله؟»

ـ صدف أن رأيت الموريس القديمة متوقفة في الشارع التالي، فقادني استدلال بسيط إلى هنا.

ـ أوه! حسناً، هذا لا يجيب عن سؤالي، لماذا أنت هنا.. هل تلاحقني مرة أخرى؟

ـ يا عزيزتي.. تجعلين الأمر يبدو غير لائق! كنت مارآمن هنا فقط. تعرفين أنني لا أستطيع مقاومة رؤية محل بيع كتب بدون أن أدخله.

ـ ماراً من هنا إلى أين؟ ظننتك في عطلة!

ـ هذا صحيح.. ألا تذكرين أن خططي تعدّلت في اللحظة الأخيرة.

كان يتكلم بخفة، لكن نظرته كانت متزنة مغايرة. أحست كابي بوخزة ألم غريبة..

قالت: «لا أفهمك.. أنا.. أعتقد أنني أفسدت خطط شهر عسلك ولكنك قلت إنك ذاهب إلى المكان ذاته في كل الأحوال».

ـ وهذا ما أفعله.. ليس هناك ما يدفعني إلى إلغاء خططي ولم ألغ منها

إلا دور العروس. وبناء على ذلك ترين أن لا داعي لتلومي نفسك على شيء.. كيف حال عاشقك السابق؟ هل تتقدم علاقتكما؟

وجدت مبرراً للغضب لأنها في الواقع غضبت منه لأنه غير عابىء البتة بغياب عروسه.. ردت وأنفها شامخ في الهواء:

ـ إن كنت تشير إلى هارڤي فهو بخير تام، أما حديثك عن تقدم العلاقة فلا أفهم ما تقصده منه.

ـ ألا تفهمين؟ حسناً.. لا تهتمي.. يجب أن أذهب الآن.. قلت لك إنني مررت صدفة.. وداعاً..

ردت بشيء من الذهول:

ـ وداعاً..

وقفت تراقبه وهو يبتعد بين صفوف الكتب، بدا لها أن من المستحيل أن يغادر هكذا بعد وداع عادي، وكأن شيئاً هاماً لم يكن بينهما. بدأت تشق طريقها ببطء في الاتجاه نفسه متسائلة عما إذا كانت ستلقاه في الخارج منتظراً ليعرض عليها الغداء، فالساعة تجاوزت الواحدة. ولكن عندما أصبحت خارجاً لم تجده. حسناً، حسناً.. لا يعقل أن تتوقع منه شيئاً خاصة بعد تصرفها المشين. إنها تؤمن الآن أنها كانت تدين لتارغت بتفسير تشرح فيه مبرراتها لقطع العلاقة، فلم يكن من اللائق أن تفر بتلك الطريقة لا تلوي على شيء.

كان وقوف سيارة هارڤي أمام منزل زوي خير مهدىء لمشاعرها. وجدته يساعد زوي في المطبخ. كان ضباب الصباح قد انقشع، والشمس شعت بطريقة تدعو فيها الناس إلى قضاء وقت على الشاطىء.. بدأت كابي تُخرج مشترياتها من أكياسها وكانت معنوياتها ترتفع تحت تعليقات هارڤي المبالغ فيها على ما اشترته.. أحست بالدفء وبالدلال مرة أخرى. ساعدت هارڤي في استخراج الفاصوليا من قشرتها، ثم صعدت إلى غرفتها لترتدي ثوب السباحة الجديد لتنزل إلى الشاطىء.

قال هارڤي وهما يتوجهان نحو الممر الصخري.

www.liilas.com
doode al 7aloo

ـ يجب أن أعترف.. أنت أجمل بكثير بهذه الثياب يا قطتي. إن ما خصتك به عمتك من ثياب من أجل الدعاية فقط تظهرك فاتنة وأنيقة.. لكنني غير واثق إن كان هذا أكثر ما يعجبني فيك.

ردت: «تعرفني شبيهة بالصبي ولكنني حتى بعدما بدلت ملابسي لم أتعلم كل الحيل.. كي لا توقعني بالكلام المعسول»

رد بفظاظة: «قولي هذا لجدتك.. أنت محتالة كالثعلب».

رفعت بصرها إليه، كانت عيناها حائرتين فقالت:

ـ لكنها ليست ذلك النوع من الحيل.. أستطيع أن أتظاهر بالحنكة عندما تجملني عمتي لأصبح كالدمية. ولكنني أنا.. أنا الحقيقية، لست مختلفة أبداً عما كنت.. ألا تعرف هذا هارفي؟

نظر إليها مبتسماً ابتسامة ساخرة:

ـ لا بأس، إذا كنت تريدين لعب هذه اللعبة مدة طويلة فهذه حيلة تعلمتها من غير تلقين. ترى هل عمتك صانعة الزيجات هي التي نصحتك بالتعقل في أمورك القلبية حتى تحققي بذلك هدفك أي الزواج؟ حسناً قطتي.. لا تنظري إليّ بسخط هكذا! فأنت لم تخفي عني رغبتك في زواج سريع. إذن كنت تلعبين اللعبة الصحيحة..

لم ترد كابي، فهارفي صادق في ما يقول، لأنه لا يستطيع فصلها عن غزواته السهلة المنال ولا يصدق أن رفضها هو شيء آخر غير مناورة مزعجة، تقصد فيها إطالة مدة الملاحقة وصولاً إلى الاستسلام النهائي. ربما لم تكبر كثيراً منذ تلك الأيام التي كانت تؤمن فيها إيماناً أعمى بالوعود المستحيلة.. لكن هارفي لم يتغير كثيراً، كذلك.. فما لعبه من أدوار كان إيذاناً مسبقاً بالمهنة التي سيتبناها. لقد أدرك منذ زمن أن لجاذبيته ووسامته تأثيراً كبيراً في النساء.. أحست كابي فجأة بنضج كبير ووجدت نفسها تتساءل ببعض الدهشة عما إذا كان لقاؤها مع تارغت هذا الصباح، ساهم بطريقة ما في إعادة تقويمها لهارفي الذي تعرفه خير معرفة.

قال مقترحاً بعد ساعات وهما يجمعان أغراضهما استعداداً للعودة:

ـ هل لنا أن نذهب إلى بئر الأمنيات؟

ـ لا بأس.

لكنها أحست بالدهشة لأنها نسيت خيبة الأمل التي شعرت بها عندما ألغى الزيارة الموعودة بسبب المطر.

بعدما تسلقا الممر المنحدر بشدة على جانب المرتفع الصخري نحو التجويف الصخري الذي يشبه الكهف، انتقلت إلى طفولتها.. لم يكن بئراً حقيقياً، بل تجويفاً طبيعياً فيه مياه تنبع من مصدر مجهول في أعلى الصخور..

ركعت قرب البئر، وفتحت راحتيها لتأخذ بعض الماء كما كانت تفعل في طفولتها. أما هارفي فوقف فوقها ووضع يديه على كتفيها، ثم قال لها بوقار، كما كان يفعل في طفولته:

ـ قولي أمنية.

حركت شفتيها بصمت، تتفوه بالأمنية ذاتها التي كانت تتمناها منذ سنوات بعيدة، لأنها أصبحت طبيعة ثانية فيها.

قالت: «دورك الآن».

مد ذراعه السمراء العارية فوق كتفيها يتمتم بأمنيته.

ضحك وهما يستقيمان معاً وقال:

ـ أراهن أن أمنيتك كانت قصر «التينرز».

نظرت إليه كالمذنبة، وقالت:

ـ أصبحت عادة، لكن جاءت هذه الأمنية في اللحظة المناسبة.. من قبل، كانت كالتمني بالحصول على القمر، لأنه لم يكن أحد قادراً على شرائه أما الآن..

قاطعها ساخراً:

ـ أما الآن فقد يشتريه أحد. هل فكرت في نتائج السحر المشؤومة؟ إن اشترى المكان شخص غريب، رمى زوي إلى الخارج وبذلك لا تستفيدين

أنت من شيء أبداً، قد ترتد أمنيتك عليك وتصفعك على فمك. هناك أشياء أخرى أفضل للتمني، ومن المحتمل أن تتحقق.

ـ مثل ماذا؟

ـ يجب ألا نكشف عن الأمنية.

ـ كنت في طفولتك تخبرني دائماً ما هي أمنيتك وكنت دائماً تتمنى أشياء مختلفة.

ـ ربما لهذا السبب لم يتحقق منها شيء.. ولكنني أعتقد أنني سأحصل على هذه الأمنية يا قطتي.. أصبحت عيناك فجأة شديدتي الاخضرار. أيدل ذلك على شيء؟

ابتعدت عنه:

ـ ربما.. إذا كانت أمنيتك هي ما أتوقع.. فلن تكون أكثر حظاً مني.

قال بصوت منخفض: «ربما أضفت إلى أمنيتي شيئاً».

نظرت إليه، غير واثقة من طبيعة مزاجه، وقالت:

ـ لو كنت من ذلك النوع من الفتيات، لتمسكت بكلامك ولاعتبرته طلب زواج.. حذار.

رد ببراءة:

ـ شكراً على التحذير.. وحباً بالمعرفة أسأل: ما كان سيكون جوابك في هذه الحالة؟

بدت الحيرة في عينيها، وكأن أفكارها أدهشتها، ثم لامست ابتسامة شفتيها لحظة، ولكنها لم تجب بل أخذت تعدو بتهور على الممر الصخري. لحق بها هارفي وعندما وصل إلى آخر صخرة مرتفعة، شاهدها تركض فوق الرمال، تقفز فوق ما يعترضها كالعادة، قبل أن تصل إلى الممر الصاعد وتلوّح له مودعة.

في اليوم التالي، أمضت كايي الصباح في محاولة عقيمة لترتيب شيء من حديقة التيرز المهجورة التي كانت تعتني بها سابقاً زوي. أشارت حالة الحديقة إلى تقدم زوي بالعمر. أخذت كايي التي لا تعرف شيئاً عن

الزراعة تنزع الأعشاب الضارة والنباتات على حد سواء معتقدة أنها بطريقة ما تحاول كبح مرور الزمان. ولكن زوي عندما رأت صنيعها في الصباح التالي لم تكن ممتنة إذ قالت لها:

ـ دعيها وشأنها.. لماذا تتعبين قلبك بما قد يصبح لغريب؟ قد تصبح هذه الحديقة مكاناً للدجاج أو الأبقار.

ـ أوه.. لا!

شحب وجه كايي وقد تصورت الصورة المرعبة، فابتسمت زوي بشيء من القلق:

ـ لا تخافي هكذا على ما قد لا يحدث عزيزتي.. أقدّر عنايتك بالحديقة ولكن إذا أردت أن ترضيني فاذهبي إلى الرمال، واستفيدي من الاسترخاء بها للتفكير في المشاكل كلها.

أحست بالارتباك قليلاً لأن زوي تلمح إلى أن هناك في ما يتعلق بالخطوبة المفسوخة أكثر مما قيل ولكنها لم تحاول أن تسأل عن طبيعة تلك المشاكل التي يجب التفكير فيها..

نزلت إلى الشاطىء وقد استعادت ثقتها بالمثال القديم الذي لا يتغير، والسبب ملاحظة زوي التي قالت لها:

ـ أتنظرين إلى جسمك وأنت مرتدية البنطلون الأخضر الجديد؟ إذا عرضت ساقيك ورفعت شعرك فقد تتعرضين إلى أكثر مما تظنين، إياك أن تكوني كفاسقة ترقص في حفلة إغراء.

لم تشاهد كايي حفلة الإغراء الراقص الشهيرة يوماً. وعلى الرغم من كلام زوي راحت تختال قليلاً وهي تتصور أنها راقصة في حفلة إغراء راقصة فمن المثير أن تتعرض إلى أكثر مما تتصور. ركبت موجة مرتفعة دفعتها فوراً نحو شخصٍ مستلق على الشاطىء.

صاحت معتذرة: «يا إلهي.. عفواً!»

أخذت تنفض الرمل عن عينيها، ثم أضافت بسرعة، لأن الهجوم كما يقال، دائماً أفضل دفاع:

ـ ما كان يجب الاستلقاء قريباً إلى هذا الحد من الشاطىء، فهذا فخ للأبرياء على الجانب الآخر.

ـ ينظر البريء العادي عادة قبل أن يشب، إنما يبدو أنك تميلين إلى الاصطدام بالناس يا كابي.

كان الصوت مألوفاً جداً. استوى تارغت جالساً.

ما زالت عيناها تؤلمانها وما زالت رؤيتها غير واضحة. كادت للوهلة الأولى لا تعرفه بثياب السباحة. مرت لحظات قبل أن تتمكن من الكلام، وقالت أخيراً:

ـ حسناً.. ويبدو أنك تميل إلى الظهور حيث لا يتوقعك المرء أبداً. أتملك قوى خارقة؟

ـ ليس على حد علمي. لماذا تسألين؟

ـ لأنه كان يجب أن تكون في مكان آخر في خارج البلاد أو في رحلة بحرية، أو في المكان الذي خططت أن تكون فيه في هذه الفترة.

ـ لم تتغير خططي.. أنا بالضبط حيث أردت أن أكون منذ شهر.

كان ينظر إليها ووميض غريب من التسلية في عينيه.

قالت: «تقصد أن هذا المكان هو مفاجأة شهر العسل الموعودة. ألم تخطط للقيام برحلة بحرية أو القيام بجولة في عواصم غريبة»؟

بدا عليه الإجفال وهي المرة الأولى التي تراه هكذا منذ بداية تعارفهما.

ـ يا الله! أهذا ما تصورت أنني أخبئه لك؟ لا أستغرب إذن ترددك وفرارك!

ـ لكن، تارغت، لماذا لم تخبرني؟

ـ لا أدري إلا أنني أردت أن أفاجئك. وهذا تصرف طفولي بعض الشيء، أكان لهذا فرق؟

ـ ربما لا.. إنما كان سيعرفني إلى جانب آخر منك..

صدمها أن يتصرف تارغت باندفاع طفولي متهور. ابتسم لها بشيء

من القلق مراقباً محاولاتها المراوغة وقال بلطف:

ـ أنت لم تفهميني قط. لم تفهمي لماذا فشلت في لعب دور العاشق.

ـ ليس هناك من سبب لتلعب هذا الدور.. لأنك لم تهتم بي يوماً.

ـ كنت أنت يا عزيزتي ترعين قلباً متألماً، فكري ملياً. بالمناسبة كيف حال تلك العلاقة؟ أتتقدم؟ هل هناك أمل في إجبار ذلك الشاب على الإذعان؟

هبت على قدميها ونظرت إليه بغضب:

ـ ألا تظن أنه لا داعي إلى هذا السؤال؟

ارتفع حاجباه باستغراب مهذب:

ـ صحيح؟ أليست هذه العلاقة هي الهدف من فرارك؟

لم تعرف إن كان جاداً. عادت إلى الجثو على ركبتيها ثم جلست. ولكنها لا تريد أن يعتقد أنها تخلت عنه من أجل علاقة أنقذها منها أصلاً..

قالت بهدوء: «صدقاً لم أكن أعرف أن هارفي موجود عندما أرسلت البرقية لزوي، لقد حدث ما حدث صدفة.. أرجوك صدقني..»

ـ أجل.. سأصدقك الآن.. غير أن ذلك لا يغير واقع أن التزامن والصدفة اجتمعا معاً؟

ـ حسناً.. لا شأن لك بهذا الآن، أليس كذلك؟

أرادت أن تكون كلماتها مؤدبة ولكن ظهرت في صوتها بعض ملامح التحدي. صفع ركبتيها بحدة:

ـ على العكس، فللخطيب السابق حق إلى حد ما في المراقبة. إنما لا يزعجك ذلك كابي.. أريد فقط الاستمتاع بعطلتي بسلام وهدوء..

ـ آه! أنت باق هنا إذن؟

ـ طبعاً.. ألم أقل إنني لم أجد شيئاً يدفعني إلى تغيير خططي.

ـ أجل.. أفهم هذا.. أين ستقيم؟

ـ في «كوباي كاسل». ألا تعلمين أنك تتعدين على أملاك الناس؟

ـ أملاك الناس؟ هل هذا شاطىء خاص للقصر؟

ـ أجل، ولكن إن قلتِ إنك ضيفتي فلن يعارضك أحد.

ـ ضيفتك؟

ـ ولمَ لا؟ نحن بشر متمدنون. تعالي إلى الفندق لاحتساء الشاي، فأنا واثق أن ذلك الجوع الشهير فيك قد بدأ يطل منذ الساعة الرابعة.

ردت بحياء: «شكراً لك، أرغب في هذا».

أحست وهذا انطباع غريب، بأن كل شيء عاد إلى مجاريه.. راقبته يرتدي الروب المنشفة ويضع المنشفة على عنقه. في شعره رمال وعلى حاجبيه قليل من الملح. لم يسبق أن رأته مرتدياً غير الملابس الأنيقة. قالت وهما يتسلقان الدرج المنحوت في الصخر، المفضي إلى القصر:

ـ أراك مختلفاً.

ـ كيف؟

ـ بدون ثياب.. بدون الثياب الرسمية، طبعاً.

ـ أرجو هذا..! لمن الرائع أن يبدو المرء مختلفاً.. إنما لا أستطيع السير بدون ثياب!

ـ أوه تارغت، أنت صارم بشكل جميل!

وضحكت، كتلميذة فظة.. فنظر إليها بسرعة:

ـ يا لها من كلمة غريبة تختارينها.. أتجدين الكلمات الرومانسية جذابة؟ لا تباشري الآن بتوبيخي بكلمات ساخطة لأنك بحاجة إلى أنفاسك حتى تصلي إلى فوق، إنه طريق طويل.

ردت: «وهل يزعجك أن تجرّب أنت بضع كلمات رومانسية؟»

تحب دائماً أن تكون لها الكلمة الأخيرة. بدأت ترتقي الدرج أمامه لتهزأ منه على ما قال، ولكنها اضطرت إلى الإبطاء قبل أن تصل إلى القمة، وعندما وضع تارغت يده على ظهرها ليدفعها إلى الأمام لم تصدر أقل احتجاج.

أجلسها على طاولة على الشرفة ثم دخل ليغير ثيابه، وقبل ذلك طلب منها أن تطلب الشاي.. ولكنها كانت مهتمة بكوباي كاسل الذي تراه

للمرة الأولى فجلست مسمرة في مكانها فترة طويلة. لقد أصبح هذا القصر فندقاً.. نظرت كابي من نوافذ مرتفعة مفتوحة إلى الشرفة المسقوفة فرأت أثاث الغرف يلمع رغم مرور الزمن عليه. نظرت إلى البسط المتلاشية الألوان وإلى السجاد الذي غيّر الدهر لونه. كان هناك سجادة تشبه كل الشبه تلك التي في غرفة استقبال «التينرز» وفكرت أن هناك جواً من التشابه ما بين القصرين.

قال تارغت من ورائها:

ـ أوه.. ها أنت.. يا لهما من عينين متسعتين! هل بدأت تشعرين بالندم لأنك تركتني؟

كانت للمرة الأولى مشغولة بأفكار أخرى لذا لم تسارع إلى الرد على مثل هذه الجرأة.. ولم تقل سوى:

ـ لا.. كنت أقارن هذا «بالتينرز».. «كوباي» منزل ضخم، ولكن «التينرز» له ميزة العز واللازمان.

رد بعد صمت قصير:

ـ أجل.. أظنك على حق. أنت صاحبة بصيرة أحياناً. هذا ما يفاجئني كثيراً في كثير من الأحايين.

أعادها رده الغريب إلى حاضرها فاستدارت تنظر إليه.

ـ وكيف تعرف؟ أنت لم تدخل إلى التينرز سابقاً.

أمسك ذراعها وقادها إلى طاولتهما مرة أخرى، حيث كان الشاي بانتظارهما:

ـ لقد مدحته أمامي كثيراً ووصفته لي حتى بتّ قادراً على تصوره.

ابتسم لها، فردت الابتسام، مع شيء من الاعتذار.. لقد كان صبوراً معها، ومع حنينها إلى أرض طفولتها، لا شك أنها كانت تضجره دائماً.

راقبها متسلياً وهي تدهن الخبز بالمربى والكريما ثم تأكله بشهوة لا حدود لها قبل أن تهجم على كمية كبيرة من الكايك.. سألها بعدما اعترفت بأنها لا تستطيع تناول المزيد.

ـ هل اكتفيت؟

قبلت السيكارة التي قدمها إليها على أمل أن تؤكد له أنها امرأة ناضجة.. ثم ردت معتذرة:

ـ ما زالت شهوتي إلى الطعام شهوة مراهقة، أليس كذلك؟

رد بلطف لم تفهم سببه:

ـ وهذا ليس بالأمر السيء يا طفلتي.. ولكن هناك شهوات أخرى ما زالت مراهقة، وقد تتغير.. فلا تكوني جشعة إلى ما لست مستعدة له.

سحبت أنفاس سيكارتها بحدة، وسعلت.. في اللحظات التي منعها فيها السعال وتدفق الدموع من عينيها عن الرد، أحست بأغرب مشاعر الندم على ما لا تعرفه جيداً.. لكنها فجأة أرادت أن تهرع إلى زوي، لتنفض عنها الإحساس القديم بأن فرارها من تارغت لم يحقق لها شيئاً.. حتى وهي تفكر في هذه الأشياء قال بطريقته المعهودة ليقفل على الموضوع:

ـ حسناً.. يقول وجهك لي إن عليَّ أن أقفل على موضوعنا السابق. في الواقع لدي عدة أمور أهتم بها قبل موعد العشاء.. وربما عليك الذهاب.

قالت: «أجل».

وقفت كطفلة تلقت توبيخاً على استغلال الترحيب بها، قالت بأدب وكأنها طفلة:

ـ شكراً للشاي تارغت.. أنا آسفة لأنني قفزت فوقك على الشاطىء.

ـ لا تفكري في ما حدث.. فكما أشرت سابقاً، كنت معرضاً للمشاكل بسبب استلقائي على الطريق. والآن هل ستعودين عن طريق الصخور أم عن طريق الشاطىء؟

ـ الشاطىء طبعاً.

كانت تفكر أن لا ضير عليه لو عرض مرافقتها فسار معها إلى قمة الدرج الصخري.. حدقت إليه مجدداً ولم تستطع أن تقاوم سؤاله بفضول

مذهول:

ـ هل أنت مقيم هنا، في الغرفة التي حجزتها لنا؟

كان ظهره إلى الخليج الرائع. سمعته يجيب:

ـ أنا لا أضع نفسي في جناح العرائس، إذا كان هذا ما تقصدينه. لقد نقلوني إلى غرفة رائعة ولكنها خالية من الزوائد التي قد تذكرني بنعمة الزواج.. والآن انتبهي وأنت تنزلين على الدرج لا أريد أن تكسري عنقك لتسجلي وقتاً قياسياً في الوصول إلى الأسفل. راقبتك بالأمس تركضين نزولاً على طريق الصخور بسرعة خطيرة.

استدارت لتواجهه فإذا هو ما يزال واقفاً وظهره إلى البحر بحيث ظلَّ وجهه في الظل لأن النور خلفه.

قالت تتذكر عناق هارڤي لها: «هل راقبتنا؟»

استدار فأضاء النور جانب وجهه وأظهر خطوط أنفه الحادة وجبهته وفكه.

قال: «من هنا، يستطيع المرء أن يرى منظراً واضحاً لما يجري تحت.. ولكنني لم أستخدم منظاري المكبر».

قالت، وكأن ما ستقوله يفسر كل شيء:

ـ كنا في بئر الأمنيات.

ـ أوه.. أجل.. مسرح العهود والوعود، والأمنيات العقيمة.. أذكر هذا.

ـ لست مضطراً للسخرية! انتهى كل شيء الآن خاصة ما له علاقة بي وبك.. فماذا يهم؟

قال بهدوء: «بل على العكس.. لقد بدأ كل شيء لتوه».

وارتد على عقبيه مبتعداً عنها.

* * *

٥ ـ أصابعها التي تحترق

إذا كانت كلمات تارغت الأخيرة قد حيّرتها وأثارت فضولها، فالأيام التالية خيبت أملها لأن ذاك التعليق كان فارغاً من المعنى، فهو لم يقم بأي جهد للسعي إليها في الكوخ. ارتادت دوماً الشاطىء الخاص ولكنها لم تره بين ضيوف القصر المعرّضين أنفسهم للشمس.

قالت لزوي: «ألا تعتقدين أن عليه أن يزورنا ولو لمرة واحدة؟ أعني أنه بمفرده في عطلة، ومن الطبيعي أن يصادق من يعرفهم».

ـ لقد فعل هذا.. سمعت أن في قصر كوباي فتاتان لطيفتان تقيمان فيه مع أهلهما.

لم تجد كابي نفسها تهتم بالفكرة.. لقد شاهدت شقراء واحدة جميلة مستلقية على الشاطىء ولكن الذكور المعجبين بها كانوا يدورون حولها..

قالت بإصرار: «أنا وتارغت صديقان قديمان».

نظرت إليها زوي مبتسمة، ثم بدأت تصنع ثقوباً صغيرة في رقاقة العجين حيث ستضع السمك لتصنع منه فطيرة السمك. ثم ردت ببعض الجفاف:

ـ أهكذا تسمين ما كان بينكما؟ لا أظن السيد المهذب قد يشعر بالصداقة بعدما خذلته الفتاة التي يتودد إليها.

يجب أن تشعر كابي بالرضى لأن زوي تقبلت أخيراً الصورة الصحيحة للخطوبة المفسوخة، ولكنها شعرت بشيء من السخط لأنها لا تكترث.

قالت: «لم يكن الأمر هكذا.. فلم يكن تارغت شخصاً يحاول التودد إليّ لذا لا أظن أن مشاعره قد جرحت.. فما من إنسان قد يمضي قدماً بترتيبات شهر العسل، وكأن شيئاً لم يحدث..»

ـ ربما أنت على حق في هذا. حسناً، إذا لم يكن أي منكما محطم الفؤاد كما دأبت على القول منذ جئت، فعلام كآبتك؟ هل السبب غرور مجروح؟

ـ لا أشعر بالكآبة!.. يا لها من فكرة سخيفة! ولا أظن أن غروري مجروح كذلك، الأمر فقط أنني..

ـ إنك كطفلة رمت بلعبة بعيداً للتكاية فقط، ثم أرادت استرجاعها.. إن أكلت من العجين فستشعرين بمغص في معدتك.

دست كابي قطعة عجين محلى في فمها بسرعة، ونفضت يديها من الطحين على مؤخرة الجينز. ثم قالت:

ـ أكل العجين يهدئني.. كالبقرة التي تجتر الطعام.. لم يكن ما فعلته نكاية زوي، ولا أسمي تارغت لعبة، ألم أشرح لك كل شيء عن الكلمات الفظيعة التي سمعتها؟

ـ نعم شرحت لي الموضوع.. ليس من المرضي أبداً أن يسمع المرء أشياء سيئة عن نفسه عزيزتي.. ولكن لو كنت تهتمين لذهبت إلى حبيبك ليواسيك بدل الفرار منه.

ـ أجل.. أعتقد هذا.. ولكن تارغت ليس حبيبي. لم تكن العلاقة بيننا علاقة حب لقد حدث كل شيء على عجل.. لم يتح لي الوقت والفرصة لأعرفه وليست الغلطة غلطتي.

ـ إذا كان قلب الفتاة مع آخر، فمن الأفضل الاستعجال.

ـ أوه.. لم أفكر في الأمر بهذه الطريقة. كان تارغت على علاقة سابقة مع امرأة أخرى أيضاً.. لذلك أعتقد أن السيف يقطع على الحدين.. وهي حرّة الآن لذا أتوقع أن يتزوجها.

ـ حسناً هذا جيد. فأنت غير مناسبة له أبداً، لأنه مهذب مميز لن

يتحمل هراءك الطفولي إلى الأبد.. هارڤي يناسبك أكثر، لأنه لا يريد أكثر من وجه جميل ورأس فارغ.

أنهت زوي ترتيب المعجنات كما تريد، ووضعت الفطائر في الفرن ثم نفضت يديها.

تغير الطقس في نهاية الأسبوع، عندما نظرت كابي إلى السماء الرمادية تحررت من أوهامها نهائياً.. في اليوم الثالث من المطر المتواصل، ذهبت إلى المنزل القديم وهي تنوي البدء بحملة تنظيف، كانت زوي مجبرة على التخلي عنها.

وفيما هي تنفض وتلمّع وتزيل خيوط العنكبوت تذكرت آخر مرة شاهدت فيها تارغت، فقد رأته مسترخياً على كرسي طويل قرب فتاة شقراء شابة، تنظر إليه بإغراء. بدوا لها معتدين بنفسيهما، ومستمتعين بخلوتهما، يومذاك شاهدها تارغت فلوّح لها محيياً بشكل عابر ولكنه لم يزعج نفسه بالوقوف والمحادثة فكان أن أدارت لهما ظهرها، نادمة على تهورها لأنها ألقت عليه التحية بود.

ولّدت هذه الذكرى عاملاً مزعجاً للعمل الذي ارتضته بنفسها. هرعت إلى الطابق العلوي، إلى غرفة تربية الأطفال. تتساءل بشيء من الغيظ عما يجده زوار القصر للتسلية في يوم ممطر كهذا.. فجأة نسيت كل شيء عن تارغت وعن حزنها، وذلك لأنها وجدت العلبة الموسيقية قد عادت إلى موضعها فوق الطاولة القديمة تحت النافذة.

صاحت بصوت مرتفع:

ـ أوه..!

قفزت من الغرفة تفكر بالمعجزة الصغيرة التي أعادتها.. فهي موقنة أن أحدهم أعادها بعدما أصلحها فما زال الطلاء الذهبي جديداً براقاً. صلحت قوائم الجياد المكسور ببراعة، وبدا الريش على رؤوسها جديداً زاهياً، وحتى جهاز الموسيقى أصلح.. فما إن لمستها كالعادة حتى قفزت الجياد لتعزف ألحانها الناعمة.

أصغت كابي إلى اللحن وراقبت مذهولة. في اللحظة ذاتها عرفت بأن هارڤي من أصلحها بغية مفاجأتها وكم أسرها صنيعه. إنه هارڤي الذي كان في طفولتها يناكدها ويغيظها ولكن عندما تشرف على البكاء كان يبرز لها مفاجأته وكأنه ساحر.

عاد الدفء ليتدفق إليها، دفء مثير لأنها علمت أنها محبوبة معتنى بها.. أحست بالحاجة إلى رؤيته وشكره، فلم تستطع الانتظار حتى الغد حيث موعدهما لتناول الغداء.. سترتدي ثيابها بعناية إرضاء له وشكراً وامتناناً.

صاحت وهي تقتحم المطبخ بدون أن تتذكر خلع حذائها المليء بالأوحال.

ـ زوي! هل عرفت؟ لا شك أنك عرفت بالطبع.. فلا أحد يستطيع الدخول بدون مفتاح.

ـ ما الذي يخبلك الآن حباً بالله؟ انظري ما تفعلينه بأرضي النظيفة.

ـ تناولت الدلو والفرشاة والممسحة..

قالت كابي: «لا عليك سأنظفه لاحقاً.. علبة الموسيقى! لقد عادت إلى غرفة الأطفال هناك من أصلحها وجددها.. هذا أروع ما حدث لي منذ سنوات!»

ـ أنت ترضين بسرعة إذن، آنستي الشابة. أليس هناك ما يبعث فيك السعادة غير لعبة قديمة؟

ـ تبدين غاضبة.. أعتقد أن غضبك وليد اضطرارك إلى الاستمرار في التظاهر بأنك لا تعرفين شيئاً.. لكنك تعرفين. ساعدت في التخطيط للمفاجأة.

ـ إذا ظننت أنني قد أبذّر مدخراتي إرضاء لخيالك الطفولي فأنت أكثر غروراً مما تصورت. يكلف إصلاح تلك العلبة كثيراً من المال.

جثت كابي على ركبتيها، تمسح بقع الوحل التي سببتها، ورفعت نظرها حائرة.

ـ لم أظن أنك الفاعلة، بل سأغضب لو عرفت أنك أنفقت مبلغاً كبيراً من مالك من أجلي.. إنه هارفي بالتأكيد. يعرف كم أحب تلك العلبة الموسيقية.. أرجو ألا تكون كلفة التصليح باهظة. هل أخرجتها من المنزل له، أم أخذها بدون أن يقول لك شيئاً؟

كشرت زوي: «ليس لي دور في أية حيلة قد ينفذها هارفي.. ولكنه يأتي ويذهب كما يحلو له، كعادته. بت لا أهتم بما قد يخرج من المنزل أو يدخل إليه ما دام سيؤول إلى مكب النفايات عندما يباع المكان».

تابعت كابي فرك الأرض، والغصة في حلقها.

ارتدت ثيابها ولكنها لم تسرّح شعرها كما تريد بسبب رطوبته فكان أن اكتفت بتمشيطه وتركته يتدلى حراً على كتفيها.

كانت حانة جولي روجر فارغة تقريباً عندما دخلتها كابي مسرعة إلى غرفة الملابس لتضع معطفها، ولتصلح ما أفسده الطقس.. كان هناك رجل غريب واقف ضجراً وراء منصة الشراب.. قال الرجل الضجر الشاب وهو ينظر إليها مقوّماً:

ـ نعم؟

سألته:

ـ هارفي.. السيد بورتلاند.. أليس في الخدمة الليلة؟

ـ أنت إحدى فتياته.. ألست كذلك؟ إنه مشغول، أترين؟ نحن نغطي بعضنا بعضاً عندما يغيب صاحب المحل.

عندما اختفى وراء المنصة، أحست كابي بحاجة إلى قذفه بمنفضة السجائر.. كيف يتحمل هارفي العمل في مكان كهذا؟ ولو مؤقتاً؟ بعد فترة وجيزة رأته واقفاً بالباب ينظر حوله ليرى من يريده، كان لديها انطباع غريب بأنه شخص آخر يختلف عن الصورة التي ابتدعتها له: وقف هناك متخذاً وضعية إغراء مقصودة، فهو يدرك نعم الإدراك المظهر الجميل الذي يمثله، كما أن هناك شيئاً مدروساً في الطريقة التي تنفرس فيها عيناه بالزبائن القلائل، وكأنه يعرف تماماً من يتوقع أن يرى.. لكنه يتظاهر

باللامبالاة.. ما إن وقعت عيناه عليها في نهاية المنصة حتى سجل وجهه الأسمر دهشة جعلتها تعرف أنها على حق.. فليست كابي من كان ينتظرها.

ـ قطتي..! ماذا تفعلين هنا في ليلة نتنة كهذه؟

ظنت أنه بدا مرتبكاً قليلاً، فأجابت بتردد:

ـ كان لدي سبب ملح لأراك.. أتتوقع أحداً؟

ـ بالطبع لا.. ظننت مما قاله بينو، أنك تلك الطائشة الساكنة بالقرب من هنا وقد سئمت مرة أخرى رفقة زوجها العجوز.. هي حمراء الشعر أيضاً.

رفعت كابي أنفها وقالت:

ـ بينو هذا ليس نافذ البصيرة.. لقد سألني عما إذا كنت إحدى فتياتك.

سرعان ما ابتسم لها ابتسامة ساحرة:

ـ حبيبتي كابي! أنت تحدثين ضجيجاً. أتغارين؟.. إن غيرتك لأمر مثير!

ـ لا أغار أبداً.. ولكنني لست فتاة أحد.

أدهشها أن تعلم أنها الحقيقة.. فلم يحرك تباهي هارفي بعلاقاته إلا شعورها بأنه شخص مغرور.

ـ لا..؟ حسناً جداً.. ومع ذلك، لم تستطيعي الانتظار حتى الغد.

ـ لا.. لم أستطع الانتظار.. لكن، أترى، أردت أن أشكرك فوراً قبل أن يزول سحر المفاجأة.

قال بلهجة ممازحة:

ـ عجباً.. إلامَ تشيرين؟ أصبحت عيناك خضراوين.. وهذا دليل الإثارة دائماً أو الغضب.

ـ وكأنك لا تعرف، علبة الموسيقى طبعاً، لقد ادعيت أنك لا تهتم بها.

صب لها كأس عصير بحذر، ودفع الكأس فوق المنصة وقال وقد عاد إلى مزاجه المألوف في طفولتهما:

ـ إذن لقد أصلحت لعبتك المفضلة نفسها..؟ ربما هذا من صنيع الجنيات.

رفعت كأسها إليه تحييه وقالت بصوت عذب:

ـ جنيات أم شياطين، الأمر سيان. شكراً لك عزيزي هارفي.. أرجو ألا تكون قد كلفتك الكثير.. فقد قالت زوي..

ـ زوي لا تعرف شيئاً.. ولكن إذا كان الثمن يزعجك فادفعي ثمن الشراب ونصبح متعادلين.. فصاحب المحل غاضب مؤخراً بسبب الشراب الذي يقدم مجاناً.

أخذ منها المال مبتسماً ودسه في درج الصندوق.

قال فجأة بعدما انفتح باب المقهى ودخل زوجين جديدين:

ـ فلنخرج من هنا. سأقلك وبذلك أوفر عليك ركوب الباص في هذا الطقس الرديء.. الزبائن ليسوا كثيرين، اسمعي قد نتوقف على الطريق.. وقفة حميمة.. هه؟

لم تكن كابي متحمسة يوماً للغزل في السيارة ولكنها أحست بأنها مدينة له رداً على ما فعله بالعلبة الموسيقية.. وأضف إلى هذا أن مجرد وجود تارغت في القصر القريب سبب لها إحساساً بالهجران. ولكن لم تكن هذه الليلة من الليالي السعيدة الحظ. ففي منتصف الطريق صعوداً إلى التل، أخذت السيارة التي كانت أصلاً بطيئة الحركة، بالتقطع حتى توقفت أخيراً.. فأخذ هارفي يحثها ويدفعها ويلعن المطر، أخيراً اعترف بالهزيمة.

ـ ثمة عطل لا أعرف ماهيته.. يا لحظي التعس فأنت في مزاج رائع! يبدو لي أنك ستستخدمين الباص على أية حال قطتي. إلا إذا استطعت إيقاف سيارة لتقلك ولكن لا تأتي السيارات كثيراً من هذا الاتجاه، فطريق سانت كوباي غير متصل بطريق آخر.

ـ لا بأس، سأسير فالمسافة لا تبعد إلا ميلين أو أكثر بقليل.

ترجلت من السيارة وهي تقول:

ـ إنني جالبة لسوء الحظ.. فالسيارات تتعطل دائماً وأنا فيها.. أو ربما في خزان سيارتك أحد شياطين كورنويل، بدلاً من نمر.

ـ آه، بالله عليك! لا تبدئي بإحدى نزواتك في طقس لعين كهذا!

بدا عليه المزاج النكد.. فنظرت إليه بدهشة.. أرادت فقط أن تهدىء روعه بسبب تعطل السيارة. شعرت بالسخط لأنه يتهمها بأنها تتصرف تصرفات طفولية.

ردّت: «لا توبخني وكأنني بلهاء.. بإمكانك على الأقل أن تجلس في السيارة لتبقى جافاً حتى يمر شخص يساعدك في إصلاح العطل».

رد بوحشية: «أظنك ستتهمينني بأنني أحدثت هذا العطل حتى أتمكن من إغوائك».

حينما ضحكت، بدا ساخطاً ولكنها قالت له:

ـ لا أظنك تختار ليلة كهذه لهدف كذاك.

ذهلت مرة أخرى عندما أمسكها بكتفيها وهزها:

ـ الأمر لا يحتمل المزاح، إن كنت لا تريدين انتظار الباص فابدئي بالسير.

تعالى غضبها.. ليس فقط لأن الأمسية كلها كانت غلطة، بل لأنه يتصرف كولد مدلل.

قالت: «يا لك من إنسان! إن أي شخص آخر كان سيصرّ على السير معي.. توقف عن هزي.. ليست غلطتي إن تعطلت سيارتك التنينة».

تمتم معتذراً، ثم أضاف بأن سيارة ما تتجه نحوهما الآن وبأنه سيقف على ناصية الطريق ليطلب من السائق أن يقلها.

كان الليل قد اشتد عندما تقدمت السيارة، توقفت ببطء خلف سيارة هارفي.. أحست كابي إحساساً غريباً بأن هذا حصل لها من قبل.. سمعت هارفي يتبادل بضع كلمات مع السائق، ثم رأته يشير إليها، وفي

الوقت نفسه انفتح الباب الخلفي.. ولم يدهشها سماع تارغت يتكلم من الداخل:

- اصعدي كابي، سأقلك إلى البيت.. وفي الطريق نتصل بأقرب كاراج ليرسل أحداً للاعتناء بالسيارة.

لم يتعرف هارفي عليه في الظلام لأنه لم يره إلا مرة واحدة. ولكنه توقف فجأة عن شكره أما كابي فترددت ثم تساءلت لماذا فتح لها الباب الخلفي. ولكن عندما أضاء النور الداخلي رأت أنه ليس بمفرده، وتعرفت على الشقراء التي كانت معه على شاطىء القصر الخاص. كانت تبدو أكثر فتنة عن قرب، شقراء أنيقة، مترفة واللآلىء التي تتحلى بها حقيقية.. صعدت كابي مترددة إلى مقعد المرسيدس الخلفي مدركة أن شعرها يتدلى كأذناب الفئران على كتفيها. أما فستانها الصيفي الخفيف فقد فقدَ نضارته تحت المعطف العتيق الذي أعطتها إياه زوي بسرعة في عجالتها للحاق بالباص..

قام تارغت بالتعارف وكأنه يقوم به في غرفة استقبال.. أدركت كابي قبل إطفاء النور الداخلي أن عيني هارفي، الخاليتين الآن من الطباع السيئة، كانتا تقولان بإعجاب للآنسة تالي مانغ إنه يعتبرها صيداً شهياً.

لم يتحدث تارغت كثيراً معها خاصة وقد قامت الآنسة مانغ بإلهائه بالحديث عن الطقس وعن متاعب السيارات العتيقة.

توقف تارغت أمام محطة الوقود الجديدة ليطلب المساعدة لهارفي ثم تابع طريقه ماراً بالزاوية التي كان عليه أن ينزل فيها كابي، ولكنه تجاوزها واتجه نحو القصر. علمت كابي أنه يخرج عن مسار طريقه ليوصل الآنسة مانغ أولاً، أما السبب فتمسكه بالتقاليد التي تقضي أن يرجع الفتاة إلى ذويها في ساعة محترمة.

كانت الريح قوية في هذا المرتفع المشرف على البحر فقد صفقت زخات المطر واجهة السيارة الأمامية بوحشية عندما ولجت من أبواب القصر. توقف تارغت في أقرب مكان من الشرفة المسقوفة الرئيسية كي

ينقذ مرافقته من المطر. شكرته الآنسة تاليا مانغ بعذوبة على الأمسية الرائعة ثم هرعت صائحة صيحات فزع مزيفة.

سأل تارغت من فوق كتفه:

- هل ستجلسين في المعقد الأمامي الآن؟

امتنعت كابي بعدم اكتراث مترفع.. لكنه وافقها الرأي قائلاً إن لا حاجة إلى تغيير الوضع.

جلست كابي متشنجة في الظلام، تحدّق برأسه وكتفيه. بدا لها أنه يسلك الطريق الطويلة إلى «التينرز» ربما ليتجنب وعورة الطريق المختصرة.. لكن هذا أعطاها وقتاً لتغرق في دموع غير مرئية قبل أن تواجهه مضطرة في نهاية رحلتهما القصيرة.

فجأة توقف بدون تحذير وأدار السيارة إلى بقعة معشوشبة بارزة يقصدها السواح. أطفأ المحرك ثم أشعل سيكارة بتمهل متعمد.. بدأت تتململ لأنها غير قادرة على السيطرة على عطسة أملت أن يخفيها صوت الريح.. فقال بدون أن يستدير:

- لماذا لا تجهشين ببكاء جيد وتنتهين من الأمر؟

بدأت: «أنا فقط...»، أحست الخجل لأنه ضبطها ولكنه قاطعها متسلياً:

- أعرف أنك لا تبكين إلا من الغضب.. فلا تدعي أي سوء تفاهم يقف في طريقك.. كنت تتشاجرين مع فتاك قبل أن أصل إليكما.. فما هو أكثر طبيعية لك أن تطلقي العنان لغضبك خاصة وقد تخلصنا من الراكبة الأخرى.

- لو أوصلتني أولاً لاستطعت البكاء بكرامة بمفردي.

استدار ببطء واستند إلى مؤخرة مقعده.

- ولماذا تحرمين نفسك من كتف طيبة تبكين عليها من أجل كرامة سخيفة؟

- ليس الأمر.. كرامة..

ـ بالطبع كرامة.. كنت ترفضين دائماً لسبب ما المواساة مني.. أليس الأفضل لك لو كنت صادقة معي؟

ـ صادقة؟ ولكنني لم أتظاهر قط..

ـ لا.. أظنك بطريقة ما لم تدعي.. ولكنك وضعت حواجز سخيفة.

جفت دموع كايي مع ذهولها.. وصاحت:

ـ لكنك من وضع الحواجز! أعني أنني لم أرك تتوقع.. حسناً.. لم يكن هناك عاطفة في علاقتنا.. فظننت أن العواطف تحرجك..

ـ صحيح؟ يا له من انطباع غريب عن رجل وافقت على الزواج به.

ـ أنت الذي وافقت على الزواج بي.. وهذا أمر مختلف.

ـ حسناً كايي. أرى أنها المرة الأولى التي أسمعك تعترفين بأنك اقترحت عليّ الزواج بدون أن تتهميني بأنني رميت اقتراحك في وجهك، ولكنني لا أرى أي فرق.

ـ ألا.. ألا ترى؟ حسناً.. أنت لم تشجعني يوماً على البكاء على.. صدرك.

قال بخفة، بعدما أطفأ السيارة وترجل ليجلس إلى جانبها:

ـ جيد جداً.. يمكننا أن نعوض عما فات.. والآن، استغلي صدري كما تشائين.

أخذ يربت على كتفها بلطف، ومع أن الذهول سلب منها كل رغبة في البكاء، فقد وجدت كايي نفسها تستريح على صدره وهي تشعر بالدلال.

مرر ذراعاً حولها ليضمها إليه أكثر، إنما بدون شغف، كما كان يضمها في اللحظات النادرة حين كان يغازلها. أدارت وجهها إلى عنقه، تستمتع ببشرته الدافئة المريحة. أحست بشفتيه تمران على جبينها.

قالت:

ـ تارغت.. هل أخطأت؟ أعني.. لم أرك راغباً في.. حقوق الحبيب العادية.. لم أفهم قط..

سمعت تنهيدة نافذة الصبر، تنهيدة يتنهدها المرء أمام استنتاجات

طفل لا يعرف شيئاً.. لكنه أجابها بهدوء:

ـ لو تصرفت معك تصرف الحبيب لانتابك الذعر.. لأنك كنت مقتنعة بأن خطوبتنا ليست إلا توافق مشترك.

ـ حسناً.. ألم تكن توافقاً؟ كنت تتصرف وكأنك عم أو خال.

ـ إنها أسهل وسيلة للتقرب منك حتى تتعرفي إليّ أكثر. احتفظت لك بالمعلومات الأخرى حتى نتزوج.. فهمت؟

كان يتكلم بخفته المعهودة.. لأنها رأت الليلة جانباً مختلفاً منه فهمت أن تصرفه كان مدروساً بدقة، فتلك الخطوبة القصيرة، كانت عذراً لتأخير فترة التودد حتى لا تعود الاضطرابات المصطنعة تلهبها.. أولم يحضر لها مفاجأة كتلك التي حضرها لها هارڤي بإصلاح علبة الموسيقى؟

قالت ببطء:

ـ خطط شهر العسل التي أبقيتها سراً، كانت غير مميزة.

هزها قليلاً: «وكيف لك أن تحكمي ورأسك مليء بأفكار مسبقة عن تصرفاتي؟ كنت مفتونة بأحلام سانت كوباي، حتى ظننت أنني قد أحصل على فرصة أفضل فيها».

ليته قال لها ذلك في وقت مبكر.. طالما ضحك على هاجسها الطفولي، حتى أصبحت تخجل من تلك الهواجس.. ولو عرفت أن تفهمه كان أعمق مما افترضت، لسعت إلى المشورة منه أولاً قبل أن تولي هاربة.

مدت يدها تلمس وجهه، وتسأل:

ـ تارغت.. لماذا جئت إلى هنا رغم كل شيء؟

اجتمعت الريح والمطر، ودفء السيارة لتلقي ظلال النعس على عينيها.. ولكن رده الجاد جاء مياهاً باردةً على روحها.

ـ لقد حصلت الآن على نعمة كتف تستندين إليها لتعويضك عن خلافك مع صديقك.. إنما لا تدعي ما حدث يعطيك أفكاراً أخرى.. كان المكان محجوزاً، والخدمة هنا رائعة، وعائلة تريفارتس مالكة القصر أصدقائي، وأخيراً، وليس آخراً يصعب أن أجد حجزاً في آخر ساعة في مكان آخر في شهر آب.. وكما سبق أن أشرت يا طفلتي، أنا لا أسمح

للعاطفة بالوقوف في طريق المنطق، فلا تتصوري أنني هنا لأجري وراءك.. على أي حال، لديك سمكة أخرى.

ابتعدت عنه بعنف، وصاحت:

ـ لا تغتر بنفسك فتظن أنني قد أهتم.. ظننت فقط أن من غير الطبيعي أن تفعل هذا.. هذا ما كان سيفعله هارڤي.. فهو لن يضع نفسه على رمية حجر من فتاة كان يريد الزواج بها بدون دافع آخر!

ـ أنا واثق أنه لن يفعل. لكن الوضع مختلف معي، أليس كذلك؟.. أنا آسف لأن ترتيبات عطلتي قد صدمتكما معاً.

صاحت به:

ـ أنت.. لا تملك دماً أحمر في عروقك بل مجرد غبار حقوقي.. و.. و.. وربما دم فئران!

قهقه طويلاً بصوت مرتفع حتى بدأت تحس بالسخف، قال أخيراً:

ـ فهمت!.. لكن لماذا الفئران؟

ـ لأنها تتناسب مع أشياء عفنة أخرى.

ـ هكذا إذن.. حسن جداً.. ربما من الأفضل أن أعيدك إلى المنزل قبل أن تضربيني.

ردت ساخطة:

ـ لن أرضي غروركَ! أجل، أعدني إلى منزلي تارغت.. وآسى أنني كنت يوماً غبية إلى درجة التفكير في أنك كنت مهتماً بي فمنحتني كتفك. هل ضحكت في سرك عليَّ؟ على كل حال لقد سبق أن قلت إن عندي سمكة أخرى.

بدا متردداً للحظة وكأنه يريد ضمها بين ذراعيه مرة أخرى ليؤكد لها أنه لم يضحك في سره عليها.. ثم أطلق تنهيدة نفاد صبر أخرى وبعدها ترجل عائداً إلى مقعد القيادة.

ـ إقلي سمكتك بحذر إذن.. وانتبهي لئلا تحرقي أصابعك.

شغل المحرك وكأنه يرفض أي رد محتمل منها ثم انطلق على الطريق.

٦ ـ مملكة الماضي

في اليوم التالي ارتأت كابي الاتصال بهارڤي في مكان عمله لتعرف ما حصل له في الليلة السابقة.. ولكنه بدا فظاً، ومتوتراً، أو ربما آلة الهاتف القديمة في القرية هي التي تغير الأصوات.

قالت له وهي تضرب السماعة على أمل إجلاء الخط:

ـ تبدو غاضباً.

ـ لا يحب صاحب العمل أن يتصل بنا الأصدقاء أثناء الدوام لأن ذلك يعني ترك المنصة.

أجل.. إنه غاضب حتماً..

ـ آه! أنا آسفة، أردت فقط الاطمئنان عليك، فأنت لم تسأل إن وصلت سالمة أم لا.

ـ ليس بالضرورة.. فخطيبك السابق هو الذي أوصلك، وهو ليس بشخص قد يحاول التودد إليك في الطريق.

ـ وكيف تعرف؟

ـ مجرد تخمين.. لا شك أن الفاتنة التي كانت برفقته قد أعاقت لك الطريق.

صاحت به، متسائلة عما إذا كان خصامهما طفولياً وسخيفاً دائماً.

ـ شكراً للا شيء! الذي حدث أنه أوصلها أولاً.

ـ ومن يهتم؟ هل تحاولين إثارة غيرتي؟

- بكل تأكيد لا! ماذا دهاك هذا الصباح؟ هل سهرت كثيراً بالأمس؟

- في الواقع أجل. لقد حضرت حفلة بعد عودتي وسهرت كثيراً. سهرت مع ممثل سينما قد يفيدني مستقبلاً.. يجب أن أقفل الخط الآن.

- أوه.. حسناً أراك الليلة.. تحضر زوي لك فطيرة خاصة، فلا تتأخر.

كان هناك صمت قصير أعقبه قوله:

- لا أظنني قادراً على المجيء.. اعتذري من زوي نيابة عني، أرجوك؟

- أوه هارفي هل السبب هو السيارة؟

- أجل.. ثمة عمل علىّ إنجازه فيها. قد لا تكون جاهزة في الغد.

- بإمكاني المجيء لاصطحابك ولك أن أعيدك أيضاً.

- لا.. لا تفعلي هذا.. سبق أن قلت إن من الأفضل ألا تأتي إلى هنا. يجب أن أبقى في حلبة الرقص ليبقى الزبائن سعداء.

- مع الفتيات؟

حرّك سؤالها فيه روح المرح والتسلية:

- من منا يغار الآن..؟ يؤسفني أن أخيب أملك هذه الليلة يا قطتي.. لكن عدم حضوري سيزيد من شوقك إليّ في المرة القادمة.. أراك!

بعدما أقفل الخط بذكاء تركت كابي غرفة الهاتف وهي لا تدري أتشعر بالغضب أم بالتسلية، فبعد عناق تارغت القصير بدا لها هارفي طفلاً صغيراً واثقاً أن لا أحد يقاوم سحره.

ولكن عليها ألا تفكر في تارغت.. ليلة أمس قال لها «إقلي سمكتك بحذر لئلا تحترق أصابعك» وهو كان يعني بذلك هارفي. ولكنه لا يعرف أنها تشعر بأنها كبرت أكثر مما كبر هارفي.. وليس لديها النية في إخباره. صحيح أنه عرفها إلى جانب من نفسه، ولكنه أوضح لها في النهاية أنه لن يقدم لها كتفه إلا كعم أو خال. فليحتفظ بكتفه تلك إلى داندي أو للآنسة تاليا مانتغ، التي تتضح بمثل تلك الجاذبية وليحتفظ بتعليقاته المختصرة

لزبائنه القانونيين، الذين سيدفعون له مبالغ جيدة.. اصطدمت به عند رصيف الميناء.

صاحت غاضبة وهي تدعك كتفها المتألمة:

- حقاً! لماذا لا تنظر أمامك؟

أرسلت ذكرى فراقهما ليلة أمس اللون الأحمر إلى وجهها، وحدقت إليه غاضبة.. كان على وشك أن يشعل سيكارة قبل أن يعود إلى سيره المتمهل.. فرمى الثقاب المنطفىء ليشعل عوداً آخر.. ثم نظر إليها ساخراً:

- لم أكن ماشياً عندما صدمتني.

ابتسمت له، وقد أدركت أن من الصعب على المرء البقاء على وقاره بعد اصطدامه بالناس.. بدا طويلاً معتداً بنفسه. كانت عيناه الكسولتان، تنظران إليها.

قال تارغت مشيراً إلى توردها:

- أرجو ألا تعرضك لقاءاتنا صدفة للحرج، كابي.. نحن نمضي عطلة لذا لن نستطيع تجنب الالتقاء من وقت لآخر.

- لماذا تحرجني تارغت؟ فنحن كما قلت في عطلة وأنا نفسي لا أهتم أبداً سواء التقينا أم لم نلتق.

- كلام مناسب.. ما دام الأمر كذلك فربما نستطيع السير هنا قليلاً.. أم لديك سمكة أخرى؟

إنه يكرر جملة أغاظتها كثيراً، ولكنها قررت ألا تعترض حتى تحرمه الرضى الذي ينشد.

قالت: «في الواقع أحاول التفتيش عن سمكة.. وبالتحديد عن الحبّار.. المسلوق مع البهارات وهذا أمر عامي بالنسبة لك».

تقدمت إلى منصة عرض، وأخذت تشتري بإسراف، ناسية أنها لا تملك سوى مبلغ لا يكفي تسديد فاتورة هاتف. تذكرت ما كان يقوم به هارفي من تعالي في الماضي، فطلبت من البائع أن يسجلها على الحساب.

ولكنه لم يكن البائع الذي كان يتعامل معه هارڤي.. بدأ يبدي المشاكسة عندما أتاه صوت تارغت:

ـ أرجوك، اسمحي لي.. وكيس آخر لي.

قالت كابي ببرود:

ـ أعطنا على الأقل دبابيس خشبية.

فأخرج بعضها من معطفه وأعطاها إياهما وهو يغمز لتارغت، قائلاً:

ـ إنها أخشاب برتقالية.. هدفنا إرضاء الزبائن.

نظرت كابي إليه شزراً ثم تقدمت إلى كومة حبال. انضم تارغت إليها.

ـ فهمت قصدك، الأوتاد الخشبية لا تناسب هذا المكان.. يجب أن تعلميني كيف أستخدمها.. أنا لا أعرف كيف أستخدمها.

جلس على الحبال، وكيس الحبّار على ركبتيه. كان مزاجه السيء قد اختفى.. فأسفت لأنها سخرت منه.

بعدما استبدل الكيسين الفارغين بآخرين مليئين، ضحكت قائلة:

ـ تدهشني تارغت.. ما كنت لأتصورك ونحن في لندن، تجلس على كومة حبال قذرة، تأكل الحبار المسلوق، بأوتاد الخشب.

ـ أظنك لم تتصوريني قط أكثر من تمثال مركون في مكان خلفي.

ـ أوه.. لا تارغت.. يستحيل أن تكون مجرد تمثال لأنك شخص إيجابي وإن بطريقة كسولة.

ـ وهذا ما تجدينه مريحاً إنما غير شاعري.

ـ لم أتوقع الشاعرية منك.. ثم لم يكن هناك وقت.. صحيح؟

ـ لا أدري ما تحاولين التلميح إليه، لا تزعجي نفسك برد حاد.. الماضي انتهى أمره دون أضرار تذكر، لذا دعينا نستمتع بالحاضر.

لاذت بالصمت وهي تلتقط قطعة حبّار أخرى بتركيز شديد. لكنها أحست أنه ما كان يجب أن يبدو عفوياً غير مهتم هكذا، مع أن قلبه بقي قوياً دون أن يضعف، ووجدت نفسها تتساءل عما كانت ستؤول إليه

الأمور لولا فرارها؟ لكانت الآن السيدة تارغت كارسون.

سألها تارغت: «فيمَ تفكرين؟»

ـ أفكر؟ آه، لا شيء مهم.. أتريد أن نتمشى تارغت؟ إذا كنت تريد العودة عبر الشاطىء، فسأرافقك حتى آخر السد.. فموعد الغداء يوشك أن يحل.

ـ إذا كان هذا تلميحاً.. فسأكون سعيداً بدعوتك إلى الغداء.

هبّ على قدميه، فأحست فجأة بالراحة.

ـ لا.. ليس اليوم. شكراً لك. لست مرتدية ما يعزز مستواك أمام الخدم المتكبرين.

نظر إليها مبتسماً:

ـ أنت جميلة دائماً.

سارت إلى جانبه على الشاطىء مختالة قليلاً بالجينز الأخضر الضيق.. كانت تقفز كالأطفال فهي غير قادرة على مقاومة إغواء البرك الصغيرة التي يجب القفز فوقها.. كان شعرها الطويل الأحمر يتطاير خلفها وكأنه علم مثلث الشكل.

قالت ترد عليه: «هذه جمل اعتدت على ذكرها ولكنها لا تعني شيئاً».

ـ أؤكد لك أنني نادراً ما أتفوه بمجاملات مؤدبة.. تعجبني ملابس عطلتك.. وما كنت أظن أن رأي خدم متكبرين قد يزعجك.

غاصت في البركة التالية بدل القفز فوقها، فأرسلت رذاذاً في الهواء ابتعد عنه قليلاً.

قالت: «ربما لا أروق لذوقك الصعب».

ـ يا له من قول غريب!. متى أظهرت اعتراضاً على مظهرك؟

ـ أبداً.. لكنك لا تطريني كثيراً.

ـ هذا ما كنت تفتقدينه؟

ـ ليس بالضبط.. ولكنك بدوت لي صعب الإرضاء.. وأنا كنت أريد

إرضاءك.

- أصحيح ذلك كابي؟ ظننت أن هدفك الأساسي هو الحصول على شيء من البروز.

- أجل.. ولكن، هذا ما اعتقدت أنك تتوقعه مني، وكان يساعدني على التغلب على لحظات هواجسي. أتعلم يا تارغت أنني عندما شاهدت فستان عرسي الجميل فكرت بأنني ما إن أرتديه حتى أروق لعينيك بنظرة مختلفة.. وتصورت أننا قد نتظاهر ليوم واحد..

التفتت إليه: «أليس من المضحك أن أقول لك هذا الآن بعدما انتهى ما بيننا؟».

لم يرد.. أما هي فشعرت بالتحرر من أي واجب تجاهه. فهو الآن على الأقل يعرف أنها لم تكن تريد أن تأخذ دون أن تعطي شيئاً بالمقابل، وأنها أملت عبر إرضاء عينيه أن تحرك فيه الرغبات التي تجهلها.

أخيراً أصبح السد أمامهما، وحان الوقت لتركض. كان للشاطىء الخاص حصته العادية من الناس المستلقين تحت أشعة الشمس.. شاهدت كابي بينهم تاليا مانغ مرتدية ثوب سباحة كانت تلوّح بكسل عن كرسي مستطيل.

قالت بفظاظة:

- سأتركك الآن لتتولى فتاتك أمرك.

- فتاتي مسافرة بعد ظهر اليوم.. لذا لن يتسنى لها الوقت حتى تتولى أمري.

التوى فمه فقالت كابي، وفمها يلتوي أيضاً برضى لم تخبئه..

- آه.. صحيح.. لقد نسيت.

بدا لها أن دهراً قد مر منذ الأمس، ومع أنها لم تتشاجر مع تارغت رغبت في عرض غصن الزيتون عليه.

قالت: «تارغت هل تأتي لتتناول العشاء معي ومع زوي؟ لدينا فطيرة النجوم، فإن لم تذقها حتى الآن فعليك الإسراع بتذوقها».

- حسناً جداً، هذا عرض مغرٍ. هل لي أن أسأل ما هي فطيرة النجوم؟

- إنها أحد الأطباق القديمة الشهيرة في كرونويل وزوي بارعة في إعدادها. لقد أعدتها من أجل هارفي ولكنه لا يستطيع المجيء..

أحست حتى وهي تتكلم بتبدل ملامح وجهه.. من غير اللياقة بالطبع أن تذكر هارفي أمامه، فهذا يدل على أن الدعوة مرتجلة، ومبتذلة.. لن يأتي الآن.. والأسوأ من هذا، أنه سيعتقد أنها تحاول التعويض عن خيبة أملها.

صاحت وهي تقفز من قدم إلى أخرى سخطاً:

- يا الله! ستسيء الآن الظن. أما زوي فستشعر بالاشمئزاز لأن تعبها ذهب سدى. أعلم أنها تفضل أن تدعوك أنت لا هارفي لأنه لم يسبق أن تذوقت طعامها الذي ستشكرها عليه. ألا يولد رفع الكلفة قلة الاحترام؟

كان قد رفع ساقه فوق السد، وصمت قليلاً ليقول بصوت غريب:

- أجل.. هذا صحيح حقاً.. لرفع الكلفة ميزاتها في ظروف خاصة.. حسناً كابي، سأكون مسروراً بقبول دعوتك. أما السبب فالآنسة جونس فقط.

- طبعاً.. ستسعد زوي بحضورك لأنها تراك ألطف رجل مهذب، رجل يعتني بهندامه، خاصة ببذلته. لذا سترتدي أفخر ثيابها لك.

- وهل سترتدين أفخر ثيابك لي أيضاً؟

كان في عينيها لبرهة مزيج من التساؤل والدهشة والخجل. أجابت بغير اكتراث:

- أوه.. سأرتدي شيئاً محترماً أكثر من هذا، وإلا سلخت زوي جلدي.. تعال باكراً تارغت حتى أصحبك إلى التينرز.. فكر في الأمر، لقد أتيت إلى هذه المنطقة منذ أسبوعين، ولم تدخل إليه مرة!

أنزل تارغت ساقه الأخرى فوق السد، فنهضت تاليا مانغ عن كرسيها لملاقاته أما كابي فنادته: «أراك لاحقاً».

وعادت تركض على طول الشاطىء في قفزات ووثبات، ولكنها

أحست فجأة بالأسف على الآنسة مانتغ المتيمة بوضوح التي ستغادر إلى مكان أقل بهجة، إلى كوخ صغير في أسكتلندة.

بعد الشاي مباشرة، أخذت تنتظر بفارغ الصبر وصول المرسيدس.. وكما هو متوقع، كان عليها تحمل العديد من ملاحظات زوي الحادة.

ـ أنت قطة فوق صفيح ساخن.. هل انتهى أمر الحب القديم، وبدأت بالجديد، أم العكس بالعكس يا آنستي الشابة؟

أخرجت أفضل الآنية الصينية لتغسلها استعداداً لتكريم الضيف.. وأكملت:

ـ لم يحدث أن انتظرت هارفي بهذا الشوق حتى وأنت طفلة صغيرة.

قالت كابي مبررة تصرفها:

ـ ليس الأمر كما تقولين.. إنه القصر.. فلم يسبق أن دخله تارغت مع أنني أضجرته من كثرة مديحي له.

ـ ولا شك أنك ستضجرينه مجدداً.. لا شك عندي.. لكن، لا تتوقعي من سيد رفيع المقام والتربية أن يرى فيه غير التراب والغبار وخيوط العنكبوت.. مع أنه قد يمازحك بمرح لأنه رجل لبق.

افترضت كابي أن عليها أن تكون مسرورة لأن تارغت ترك مثل هذا الانطباع ولكنها بدأت تتعب من سماع الإفراط في مديح فضائله..

عندما توقفت المرسيدس في النهاية أمام باب زوي وبعد أن أبدى تارغت احترامه، وأظهر رغبته في القيام بجولة استكشافية عادت روحها المعنوية.. فهذه لحظة طالما حلمت بها.. أن تعرّف تارغت على مملكتها.

قادته في الغرف المغبرة، تحاول استعادة الماضي بذكر معلومات لا تنتهي وذكريات غير مترابطة. ولكن مع أنها أسرت اهتمامه المهذب، المنزل لم يكن يشبه الصورة التي تحاول إظهاره بها بحنان. بدأت تتلعثم، ثم صمتت أخيراً.. مررت يدها على غبار كثيف فوق سطح طاولة قديمة معطوبة ثم قالت:

ـ إنه مجرد منزل قديم مهجور.. أليس كذلك؟ لا غموض فيه، لا سحر، بل مجرد غبار واهتراء.. إنه محزن حقاً.

قال بهدوء:

ـ يقع الحزن في السنوات الضائعة طفلتي.. لم يتغير المنزل ولكنك تريته بعين النضج.. هذا كل شيء.

ـ أجل.. أعتقد هذا ولكنني أردت.. أردت أن أريك إياه.. كما كان يبدو لي يوماً.

ـ أرجو ألا يكون وجودي قد بدد الأوهام.

ـ لا.. لا أظن هذا.. فقد أحسست بتبدل حاله منذ عودتي.. لقد سبق أن قلت لي يا تارغت إن الأوهام سريعة الزوال، والفقاقيع سهلة الاختفاء. أنا لست واثقة أنني فهمت يومها ما قصدته بالضبط.

ـ أعتقد أنني حاولت تحذيرك.. قد تكون خسارة أول وهم مؤلمة. حذرتك كذلك على ما أذكر أن من الخطأ العودة أحياناً.

نظرت إليه وهي ترد شعرها عن كتفيها بنفاد صبر.. أحست أن لحظة الوعي قد مرت فقالت وقد عاد إليها ميلها القديم إلى المجادلة:

ـ لكن هذا أمر متناقض.. كيف حذرتني من العودة إلى أرض الطفولة وأنت قد خططت للمجيء إلى هذه الأرض بالذات؟

ابتسم: «أجل هذه قصة أخرى، ربما وقعت في فخ التصديق بنفسي آملاً في تلاحم المتضادين».

ـ أي متضادين؟

ـ لا تأبهي.. ليس للأمر معنى الآن.. لا أرضي عادة فضولاً لا جدوى منه، حتى وإن عرفت الرد.

عبست فجأة:

ـ أنت لا تتصرف كمحام بارع في قاعات المحكمة بل تتصرف وكأنك أستاذ في مدرسة.

أقام ظهره، وبدأ يتحرك بكسل في الغرفة متأملاً الشقوق في

الجدران..

أجاب: «أريد أن ألقي نظرة على فجوات الخزائن في غرفة الطعام.. فلربما وجدنا كسرات خبز هناك».

خرج إلى الردهة، واستدار يميناً، ثم يساراً في ممر حجري يفضي إلى المطبخ وغرفة الطعام. لحقت به كابي ببطء، ثم وقفت تراقبه وهو يمرر يديه فوق رقعة ملونة في صدر المدفأة.

سألته عابسة: «أجئت إلى هنا سابقاً، يبدو أنك تعرف طريقك جيداً؟»

ـ لقد وصفت لي المنزل وصفاً جعلني قادراً على السير فيه وأنا مغمض العينين.

ـ لكنني لم أصف لك قط الفرن لأنني أنا نفسي لا أعرف بوجوده.

ـ ربما وصفته لي الآنسة جونس عندما جئت إلى هنا لآخذ سيارتي.. تحدثت كثيراً عن المنزل.. والآن رافقيني إلى غرفة الأطفال التي لن أحلم في غزوها بدون دعوة منك.. وبعد ذلك نعود إلى الكوخ قبل أن تفسد الفطيرة الشهيرة.

ركضت كابي في الممر ثم ارتقت الدرج.. وجدت سعادة غير متوقعة في تعريفه إلى أعظم كنوز طفولتها، إلى العلبة الموسيقية الغريبة الساحرة، التي لم تعد مكسورة صامتة، كما وصفتها دائماً، بل عادت إلى الحياة بمعجزة..

ـ انظر تارغت! هذه هي! هذه هي علبة الموسيقى الرائعة التي حدثتك دائماً عنها.. أليست مذهلة بجيادها الصغيرة وركابها؟ لا أحد اليوم يصنع أشياء كهذه!

انحنت فوق العلبة، فشاهد تارغت الحنان والحب في وجهها. ابتسم وهو يراقبها، فقد بدت لعينيه طفلة صغيرة بأنفها الصغير الغريب الذي يعطي صورتها الجانبية جواً من البراءة غير مترابط..

قالت مرة أخرى وهي تشير بنفاد صبر أن يقترب:

ـ أنظر! لقد أصلحت وجددت.. ظننتها رميت لأنها كانت مكسورة، وكان هذا أسوأ من قراءتي إعلان بيع المنزل. ولكن أحدهم فاجأني.

ضغطت زراً أطلق الآلة، وبدأت الجياد تدور واللحن يعزف.

بدأت قدما كابي القلقتان دائماً اللتان لا تستقران فترة طويلة في مكان واحد بالتحرك بضربات رتيبة مع الموسيقى، وأخذت ترقص الڤالس في الغرفة. مدندنة اللحن ذاته.. أمسك بها تارغت بين يديه وهي تمر به. بدا لها وجهه للحظات غير مألوف وكأنه تسلل هارباً من حارس غير مرئي.

سأل بصوت منخفض عذب ملؤه اللطف:

ـ هل أعطتك هذا القدر من السعادة؟

رفعت نفسها نحوه تلثم خده بلا تردد، لأن تصرفها هذا بدا طبيعياً سواءً أكانت مخطوبة له أم لا.. أحست بذراعيه حولها بعد ثانية من التردد. وبدأت غرفة الأطفال القديمة تتحول وتزول لتخلق مكانها حياة جديدة بين ذراعيه.

أجابت بعدما تركها:

ـ أوه.. كثيراً.. كثيراً.. لقد أعادت إليّ ثقتي بالمعجزات.. أترى.. بالطبع لم يكن إصلاحها معجزة حقاً، لأن هارفي ببساطة أخذها للتصليح ولكنها بدت تعويضاً للكثير من الخيبات.

كانت يداه تستقران على كتفيها فأسبلهما قائلاً:

ـ هكذا إذن..

وارتد وقد بدا ضجراً.

تابعت وهي تحاول أسر اهتمامه:

ـ هكذا علقنا في المطر بالأمس.. سيارتي لم تدر، فذهبت إلى ماريانبورث بالباص لأنني وجدت أن عليّ أن أشكره فوراً. ثم عرض أن يقلني إلى المنزل بسبب المطر. لكن السيارة تعطلت، ثم جئت أنت، فأصبح كل شيء على ما يرام.

ـ لم يكن تصرفك يوحي بأنك تشعرين بسوء الطالع. ربما تدخلي

أفسد عليك أسلوبك.

ـ ليس أكثر مما أفسدته عليك مع صديقتك الفاتنة.

تساءلت لماذا بدا غاضباً وخائباً فجأة.. لكنه ابتسم، ثم ضغط الزر مجدداً ليوقف الموسيقى. فسألت:

ـ كيف عرفت كيف توقفها؟

ـ لمعظم هذه الآلات طريقة واحدة في التشغيل. والآن أريد أن أسأل: هل أبدى فتاك السعادة والغرور بسبب عرفانك بالجميل؟

ـ أوه.. ادعى البراءة أولاً.. فهو يحب ممازحتي.. ولكنه لم ينجح في الإخفاء، فلا أحد سواه قد يفكر في مثل هذه المفاجأة باستثناء زوي التي لا تستطيع تحمل أجرة التصليح.

ـ هكذا إذن.. حسناً.. يجب ألا نبقى هنا أكثر من هذا.. فأنا أتوق إلى تذوق فطيرتكم الشهية. تعالي!

كانت زوي بانتظارهما.. كانت قد ارتدت أفضل ثوب حرير لديها وكان العشاء جاهزاً في المطبخ..

مرت الأمسية كالحلم بالنسبة لكابي. كان تارغت بين الفينة والأخرى ينظر إليها ويبتسم. عندما حلّ الظلام، وأضيئت المصابيح عادت كل الأشياء إلى الحياة بدءاً من طاولة الزينة مروراً بالنحاس على المدفئة وصولاً إلى الكتب والصدف وقطع الخزف الصيني على الرف.. وجدت نفسها تعود إلى واحة طفولتها.

تثاءبت ولكنها كانت تدرك أنها لا ترغب في النوم فقط بل في الاستغراق في الخيال مرة أخرى.. فجأة رأت هارفي يقف مرفرفاً عينيه على تارغت الممدد في كرسي زوي الهزاز، وعليه سيماء الراحة.

قال وعيناه تتجهان إلى كابي الجالسة أرضاً إلى جانب تارغت:

ـ رائع! لقد كنت سريعة في ملء مكاني الفارغ يا قطتي! ما كان يجب أن أزعج نفسي بالمجيء إلى هنا، مع أنني متأخر، كي أعوض لكما عن خيبة أملكما.

قالت كابي تشعر بالنعاس:

ـ زوي وحدها كانت سيخاب أملها.

ابتسم لها، ومد يده يعبث بشعرها، وسأل:

ـ هل بقي شيء من الفطيرة؟

وكأنه طفل صغير واثق بأن قطعة من الحلوى لا بد وأن تكون بانتظاره.. ملست كابي شعرها متعمدة إظهار سخطها، وأسندت نفسها على كرسي تارغت، تلامس ركبتيه. وقالت:

ـ أكلناها كلها.. تارغت تناول أربع قطع.

لم يزعج تارغت نفسه ليصحح لها ادعائها، بل نظر إليها يرفع حاجبه ساخراً، يدرك أنها تضغط على ركبته بألفة لم تظهرها خلال خطوبتهما.

قال هارفي يمسك زوي من خصرها ويضع قبلة على خدها:

ـ أوه.. حسناً.. سأكتفي بما تبقى.. ماذا لديك أيتها العجوز العزيزة؟

ردت زوي:

ـ توقف عن المداهنة.. في الخزانة لحم وجبن وحلو من الأمس..

أخذ بعد الطعام مصفراً بمرح، ثم جلس إلى المائدة مادّاً ساقيه بطريقة تدل على أنه ينوي الجلوس هناك أكثر من الضيف.

قالت كابي وهي تجلس على الأرض:

ـ إذن جهزت السيارة بعد كل شيء.

نظر إليها بفظاظة:

ـ أجل.. جهزت.. ولو متأخرة قليلاً، وإلا لحضرت إلى هنا في وقت أبكر.. إنما أليس هذا أفضل؟

أدركت كابي فجأة أن تارغت قد يسيء فهم تودّدها إليه، التودد الذي لا حق لها به، فابتعدت عنه. رأت مع شيء من الدهشة إنها أثارت غيرة في نفس هارفي لا يكاد يخفيها، وما زاد دهشتها أن غيرته أرضتها ولكنها تمنت لو امتنع عن المجيء لأن مجيئه عكر هذه الأمسية.

أحست بالراحة عندما أعلن تارغت عن ضرورة رحيله.. رافقته وهي تفكر في الاعتذار منه ولكن فيما كانت في الخارج تستدير تقدم له شكراً خجولاً للطفه مع زوي، وأسفها على أي تقصير بدر من ناحيتها سبقها إلى القول ببرود:

ـ إنه عرض في غاية الجمال عزيزتي.. أرجو أن تكوني قد تمكنت من إثارة حرارة دم فتاك.

ـ لا يمكنك الظن.. لا يمكنك أن نظن أنني أستخدمك..

صمتت وقد عجزت عن إيجاد ما تقول، ورأته يبتسم وهو يدخل إلى السيارة، ثم يقول بأدب:

ـ ألا يمكنني؟ حسناً.. مهما كان قصدك فأنا مسرور على ما قدمت من مساعدة لك.

صاحت كابي وهي تدس رأسها في النافذة المفتوحة:

ـ لكن.. ألا تهتم؟

ـ لا أبداً وإن كان ذلك يخيب أملك، عمت مساء.

وانطلق..

* * *

٧ ـ الحب لا يعرف الرحمة

هل الأمر بهذه البساطة؟

فكرت في هذا فيما كانت أضواء المرسيدس الخلفية تتوارى وكانت تحس بذراعي هارڤي تحيطان بها من الخلف. أدارها إليه بطريقته الفظة المعهودة وسألها:

ـ هل بدأت تندمين على المأسوف عليه؟ لن تجدي الدفء معه قطني.. فلماذا لا تكبرين وتأخذين ما أردته منذ زمن؟

مالت شاكرة إلى ولائها القديم لأنها ما تزال تتألم من نبذ تارغت لها.

سار معها في حديقة المنزل القديم التي انقلب إهمالها جمالاً تحت ضوء القمر.. وقفا على الشرفة حيث طالما ادعيا أن المنزل منزلهما.. ولكن الأمر مختلف الآن، فهما ليسا طفلين.

قال هارڤي لها وهو يودعها أخيراً أمام باب زوي:

ـ ما زلت تحبينني أيتها السخيفة.. فلماذا تتمنعين عني ما دمت حرة؟ أريدك كلك كابي.. وهذا قليل على من يحب..

ـ لكنك أحببت الكثيرات.

هزها قليلاً: «لا أصدق أنك غير مبالية بعلاقاتي، فلماذا تغضين بنملة وتبتلعين جملاً؟ لماذا تنكرين على نفسك غرائزك الطبيعية من أجل وسواس؟ ما من عريس في هذه الأيام يتوقع أن يكون الأول».

ردت وهي دهشة من تأكدها:

ـ يتوقع تارغت ذلك.

ـ هل أفهم من قولك أنك قد تغيرين رأيك مرة أخرى؟ لو كنت متمسكة بالزواج لكان عليك أن تلتصقي بخطيبك البارد العاطفة.. أعرف أنه ذو تجربة ولكنني أراهن أنه بارد في الفراش.

ابتعدت عن ذراعيه وقد تحول سحر الليل والراحة إلى قباحة. كانت معتادة على فظاظة تعبيره، ولكنها لم تؤمن يوماً بآرائه.

سألت وهي تحس فجأة بالنضوج بدلاً من الانزعاج بسبب الغيرة الواضحة في صوته.

ـ لماذا تزجّ تارغت في شؤوننا الخاصة؟ أنت أردت مني شيئاً وأنا توقعت آخر منك.. هذا كل ما في الأمر. كانت خطوبتي رد فعل طبيعي فهمه تارغت جيداً.

بدا لها أنه محكوم على الأمسية أن تنتهي بشجار، ولكنها تذكرت أن فراقها مع تارغت أشبه بالخصام. فتارغت، اللعنة عليه، لا يتشاجر أبداً ونادراً ما يفقد أعصابه.

قال لها هارڤي وقد عاد عدم الاكتراث إلى صوته:

ـ ما زلت أريد التسلية وأنت تريدينها أيضاً رغم إدعائك عدم المبالاة. أقدّر لك أسلوبك، حلوتي، ولا مانع في جعلك سيدة محترمة، لمجرد مسح السيد تارغت كارسون من رأسك.

ـ ما هذا بسبب جيد لتحمل أعباء الزواج ونفقاته.

تساءلت بينها وبين نفسها لماذا لم تتمسك على الفور بهذه الفرصة.. ورد عليها:

ـ إن هذا السبب بجودة أسبابك التي دفعتك إلى ذاك الزواج.

إنه على حق، ومن المريح أن تذكر نفسها بأن تارغت ليس أفضل منها فهو أيضاً دخل إلى حلبة الخطوبة لينسى حباً غير مطلوب.

بعد دخولها إلى الفراش ظلت مستلقية تفكر في ثمار هذه الليلة ولكنها أطالت النظر في تلك اللحظة المذهلة في غرفة الأطفال عندما احتواها

تارغت بين ذراعيه فيما العلبة الموسيقية تعزف لحنها القديم الحلو المنسي.. لقد نظر إليها تارغت بما يشبه الحنان، أما هارڤي فقال لها إنه سيجعل منها زوجته ليمحو تارغت من رأسها.. قالها برغبة إنما بغير حنان.. فهل الأمر بهذه السهولة؟ مجرد منافسة خيالية.. تمددت كايي بين الأغطية الباردة، تقول لنفسها إن مثل هذا الذريعة قد تعمل عكسياً.

ظلت الأيام القليلة التالية دافئة رائعة.. لم تجد كايي ما يمنعها من استخدام شاطىء القصر الخاص.. ستتمدد على السد، مسلحة بمنشفة وزيت لحمام الشمس، ثم الانتظار على أمل أن يظهر تارغت.

قالت له عندما دعاها للمرة الأولى إلى الشاطىء:

ـ لا أدري لماذا تحتفظ بهذه الامتيازات لنفسك؟

قال: «لماذا لا تقصدين مكاناً آخر؟»

سألته غاضبة: «أتريد مني أن أذهب؟»

رد بأدب: «أبداً.. اسمعي من الأفضل أن تضعي زيتاً على بشرتك أو تجلسي في الظل، فلقد بدأ النمش يظهر على بشرتك».

فتشت في حقيبة الشاطىء عن الزيت. وراقبها وهي تضعه على بشرتها، ثم رفعت وجهها إليه لتسأله بلهفة:

ـ هل حالتي سيئة تارغت؟ يظهر النمش عادة على حُمُر الشعر وتنتشر بشرتهم.. هل بدأت بشرتي تتنشر؟

ـ لا.. لا.. إنها وردية فقط.. النمش ظاهر على أنفك المتكبر.

قالت: «أنفي مسؤول عن كثير من مشاكلي».

لاحظت أنه يراقبها بعينين كسولتين نصف مغمضتين:

ـ إنه كبش فداء معقول.. هذا ما لاحظته حين ترغبين في إيجاد عذر لتصرفك.

تساءلت عما إذا تذكر أنها ألقت اللوم على أنفها لعرضها تلك الخطوبة، وقالت بسرعة:

ـ لن يحملك الناس على محمل الجد إذا كان أنفك مرتفعاً.

ـ وهل ترغبين في أن يحملك الناس على محمل الجد كابي؟

رفعت رأسها بتساؤل ولأنها لم تجد في كلامه تشجيعاً حقيقياً لم ترد، بل جلست تضع الزيت على ذراعيها وساقيها. ثم قالت، بصوت ضعيف:

ـ لا أستطيع الوصول إلى ظهري..

ناولته زجاجة الزيت.

ما إن شعرت بأصابعه الطويلة، تطوف على ظهرها حول كتفيها الرقيقتين بحركات ثابتة حتى تساءلت لماذا توفر لها لمساته مثل هذه المشاعر.. طالما قام هارڤي بالعمل ذاته أكثر من مرة، ولكنها يوماً لم تشعر بمثل هذا الشعور علماً أن تارغت لم يسع إلى إغرائها بلمساته كما كان يفعل هارڤي.

قال لها صافعاً كتفها بطريقة محببة:

ـ هاك.. هذا ما سيفيدك.

وهذا ما بدد أية فكرة قد تدفعها إلى الحلم. اقتربت منه قائلة:

ـ شكراً لك. أتريد أن أفعل الشيء نفسه لك؟

أحست بألم خفيف حينما رفض العرض غير شاكر.. قال بحدة مزعجة:

ـ أظنك تحاولين العبث معي.. فهل ترغبين في التمرين استعداداً للالتزام النهائي بالسيد بورتلاند الوسيم؟

أحست وكأنه لطمها عن قصد. بدأت تلملم أغراضها بسرعة وبغير انتظام، ثم وقفت. قالت غاضبة:

ـ هذا قول عفن! منحط و.. وغير جدير بالرد.

ـ غير جدير بالرد؟ ولكنني ظننت أن العلاقة القديمة تعود إلى مجاريها بشكل رائع.. كان صاحبك ينظر إليّ نظرات شك. لذا تصورت أنه استفاد بالأمس بعد رحيلي كثيراً.. فهل خيّب أملك؟

ـ على العكس. ذهبنا إلى الحديقة، ووقفنا على شرفة المنزل القديم تحت ضوء القمر حيث أمضينا نصف ساعة ممتعة.

ـ حقاً؟ حسناً.. إن المنافسة تدفع الرغبات الضعيفة.

صاحت وهي تسيطر على غضبها بصعوبة:

ـ هذا خيال محض..! كيف لك أن تعرف شيئاً عن رغبات هارڤي، سواء أكانت واهنة أم مشبوبة؟

ـ أوه.. لا أعرف.. لكن المرء قادر على الحكم من منظار ما يرى وقد يكون مخطئاً.

قالت، وهي تدرك بخزي أن صوتها يرتجف:

ـ تحاول الإيحاء بأن اهتمامك بي واهن.. فلا تزعج نفسك.. رغبتك فيّ لم تكن قط عميقة.

ربما سمع ذلك الارتجاف في صوتها إذ تلاشى شيء من البرودة وحل محله شيء من الدفء.

ـ وكيف لك أن تعرفي؟ هل استثنيت الرغبة من الصورة التي رسمتها لي؟

وقفت، تضم حقيبة البحر إلى صدرها مذهولة. ثم اتسعت عيناها وقالت:

ـ أنت من رسم الصورة.. لا أنا.

هز رأسه نفياً:

ـ بل كنت أتجاوب مع الصورة التي رسمتها لي أنت فقط.. على أي حال، كنت تفرضين صورة على أخرى.. وما كان يفيدك المزج ما بين صورتي وبين صورة السيد بورتلاند المشبوب العاطفة.

ـ لكن..

ـ دعيني من هذا الآن. فبما أنك تعتقدين أن في عروقي وحلاً وسخاً.. آه.. أجل ودم فئران.. فأنت لا تستطيعين توقع المزيد من الشاعرية.

أملت لو تتنسم أي دليل على مشاعر مجروحة في صوته فقالت:

ـ كانت كلماتي تلك كلمات فظة وسخيفة.

رد عليها بطمنتها بأدب:

- أبداً.. أجد وقاحتك مسلية وإن كان فيها بعض المبالغة. أنت تحبين اصطياد مشاجرة معي، ولكنني لست من صنف فتاك المشاكس..

لا.. إنه ليس هكذا. وكم رغبت لو كان مشاكساً كهارڤي، لكانت ثارت ثائرته ولأظهر بعض المشاعر أمام فكرة المنافسة.

سألت وخيبة الأمل ظاهرة عليها: «ألا تفقد أعصابك أبداً؟»

ابتسم يرد:

- في يوم ما قد أفاجئك.. إنما لا تعتمدي على الاستمتاع بما سترين.

تكلم بخفة ومع ذلك كان التحذير واضحاً في عينيه.. لا.. الشجار مع تارغت لن يكون كالشجار مع هارڤي.

قالت:

- آه.. حسناً.. سأبقى بعيدة ما دمت موجوداً لئلا يغريك العنف.. وأنا آسفة لأنك تظن أنني أتجرأ عليك بسبب أساس.. تعارف قديم.. وداعاً، وشكراً لأنك أقرضتني شاطئك الفخم الخاص.

ابتعدت عنه شامخة الأنف.. ولكن، ما إن بلغت الحائط الذي يقسم الشاطىء، حتى وجدت صعوبة في منع دموعها من البدء في الجريان.. سرعان ما سمعت وقع أقدام حافية على الرمال الرطبة، وكأن أحداً يجري خلفها ثم ما لبثت أن شعرت بيدين تمسكان كتفيها لتوقفاها.

قال تارغت فوق رأسها: «لا تذهبي وأنت ساخطة هكذا أيتها الطفلة السخيفة».

استدارت رغماً عنها لتواجهه، فكان أن مرر أصبعاً على أهدابها المبللة وقال بلطف:

- دموع؟ أنا آسف كايي إن أسأت الحكم عليك.. أكنت تريدين شيئاً مني؟

كانت تريد.. تريد أشياء لم تدركها من قبل، تريد الدعم والحكمة

والنصيحة، أو حتى الطمأنينة ومحية صديق.. لكن ما استطاعت قوله كان:

- أنا أبكي من..

صمتت، فأردف:

- من الغضب.. آه.. أجل.. نحن نعرف هذا.. ألا تذكرين ما قلته لك تلك الليلة عندما قدمت لك كتفي لتبكي عليها؟ الراحة ليست سهلة المنال عندما يكون هناك احتمال في رميها في وجه صاحبها..

- أهذا ما أفعله؟

- ليس عن قصد على ما أظن.. ربما أنت خائفة قليلاً من إثارة المشاعر بيننا.

اتسعت عيناها وقالت:

- لكن، طبعاً! أهكذا تريد الأمر؟ إنه لمن المحرج التظاهر بعاطفة لا وجود لها. مع ذلك، أذكر أنك قلت لي مرة إن التظاهر قد يُشعرني بالعزة.

- أنت متعلقة بهذه الكلمات ولكنك لم تدركي أنها تأتي مع الزواج. ولو عرفت لترددت قليلاً قبل أن تهربي.

- أجل.. كان سيعطيني الزواج الحب والعزة.

- إذن، ضعي في ذهنك، في المرة القادمة التي تفكرين فيها بالزواج أن ذلك جزء هام من الزواج ككل.. والآن، هل تتناولين العشاء برفقتي هذا المساء في القصر تعويضاً عن كرمك؟ إن كنت هدفاً ليفتح فتاك عينيه فمن الأفضل البدء بإظهار بعض الاهتمام بك.. صحيح؟

قالت بذهول: «حسناً».

قال لها إنه سيأتي لاصطحابها في السابعة ليوفر عليها الخروج بسيارتها ثم طلب منها أن ترضيه بارتداء ذلك الفستان الأخضر المرصع باللؤلؤ.

تلك الأمسية كانت علامة بارزة بالنسبة لكايي، لأن مشاعرها كانت

مرتبكة ومشوشة. كان تارغت عند كلمته فبعدما أمضى الأسبوعين الأولين بعيداً عنها، متجاهلاً وجودها، أصبح الآن نادراً ما يترك يوماً يمر بدون أن يزور منزل زوي، أو يدعوها إلى القصر.

كان يثير النزهات ورحلات الاستكشاف، ويؤكد على ضرورة الاستحمام اليومي على شاطىء القصر الخاص.. وفي الأيام الرطبة كان يساعدها في حملات التنظيف في التيرز.

في البداية شعرت بالغبطة لأن علاقتهما تحيا من جديد، العلاقة التي وجدت أنها اشتاقت إليها. ولكن مع مضي الأيام تذكرت الهدف من كثرة زياراته فهو أكثر ما كان يهتم بها عندما يصدف أن يأتي هارڤي. لم يكن من المستساغ أن تعرف أن اهتمامه ما هو إلا ادعاء..

قالت لتارغت وهما في إحدى جولاتهما على الساحل:

ـ أعتقد أن ما يفسد الطبيعة البشرية أن يجد المرء ما يحلم به بين يديه، خاصة عندما يكون غير متأكد من أنه يريده.

كانا يجلسان على حجر في فناء مقبرة كنيسة نورماندية صغيرة.

نظر إليها تارغت باستغراب، ليرد بصرامة محددة: «إنه رد فعل طفلة مدللة».

نظرت إليه مصدومة: «أهذا رأيك بي تارغت؟»

أصبحت عيناه رقيقتين وهو ينظر إليها، تجلس مستقيمة إلى جانبه.

قال: «لا.. لا أظن هذا.. لم تتح لك فرصة الدلال بالمعنى المفهوم أليس كذلك؟ فلم تحصلي على منزل حقيقي أو على حب حقيقي، ربما..».

ردت وهي تفكر أن من الغرابة سماع تارغت يتحدث عن الحب بهذه السهولة:

ـ كان التيرز منزلي أو بالأحرى كوخ زوي.

ـ ومنه خلقت حلماً.

ـ ألم يكن لك أحلام أنت أيضاً؟

ـ آه! أجل.. كان لي أحلامي.. ولكن عندما يكبر المرء يتعلم الوصول إلى تفاهم مع أحلامه.

لم تجرؤ على طلب الإيضاح، لأنه يفكر بالطبع في داندي الحرة مرة أخرى الآن. قالت وهي ترفع شعرها الكثيف عن عنقها: «ليتني لم أقابلك هنا».

ـ لأنك، ومع شيء من التشجيع قد تحولين تلك الصورة؟

ـ لا أدري.. ولكنك تبدو مختلفاً هنا.

ـ هذا لأنك بتّ تعرفينني أكثر مما مضى.. أترين، يا طفلتي، الهروب لا يغير شيئاً في الأساس.. لولا فرارك لكنا نجلس هنا نتعارف.

ـ ولكنا متزوجين الآن.

ـ حسناً.. هذا بالضبط القصد من العملية كلها. أكنت خائفة؟ ألهذا هربت؟

بدأت تجمع شعرها البرّاق على قمة رأسها، وتتركه يقع ثانية، ثم تجمعه مجدداً، لتبقي يديها في شغل، ولكنها نظرت إليه عن غير اضطراب وقالت:

ـ لا.. لم أكن خائفة، بل ربما كنت متوترة بسبب قلة خبرتي واعتقادي بأنني لن أفي بالمطلوب مني كزوجة لرجل مثلك. أنت لم تظهر لي دليلاً واحداً على ما يحتاجه الحبيب.

ـ فكان أن اعتبرتني بارداً، مفتقراً إلى كل المزايا التي ترغبين فيها؟

كانت ستشعر بالسعادة لو ظهر في صوته أثر للندم. ولكنها أجابت بصدق لأنها تريد أن توضح له أنها كانت تقدّر علاقتهما القديمة:

ـ لا.. وهذا هو الأمر الغريب. نعم ظننتك بارداً، ولكنك مع ذلك أشعرتني بالعزة.. وهذا أمر غريب.

ـ ليس غريباً جداً.. لقد أعطيتك الأمان، أعطيتك كتفاً تتكئين عليها.

ـ وماذا أعطيتك بالمقابل؟

ـ صداعاً أليماً في وقت ما.. ولكن دعينا من الماضي.. آن لنا أن

نتحرك إن كنت تريدين ملاقاة فتاك في السادسة.

وقف وهو يتكلم ثم مد لها يده ليرفعها، فقالت:

- أجل.. بالطبع، لا أريد أن ينتظر بعدما أتعب نفسه في حجز طاولة في القصر.. أعتقد أنك لن تحب الانضمام إلينا تارغت؟ أشعر بأن من السخافة أن نتعشى على مائدتين منفصلتين في الفندق ذاته.

لم تنتبه لبداية بسمة سارع إلى إخفائها. قال بتركيز:

- لا.. إني على موعد مع ضيف رائع.

في المساء عندما جلست مع هارفي إلى طاولتهما، في مكان غير جميل في قاعة الطعام الأنيقة، رأت أن مع تارغت فعلاً رفيقة شابة أنيقة، ذكية وراقية وقد حكمت عليها من خلال الطريقة التي كانت تستدعي فيها اهتمامه، وتجعله يضحك.. أما الطاولة التي جلسا إليها فقابعة قرب النافذة بحيث تطل على منظر الخليج الرائع وكان الخدم يحومون حولهما بمزيد من الاحترام.

قال هارفي معلقاً، بشيء من اللؤم:

- يجعل المأسوف عليه ضيفته مخدرة.. ربما هما يحتفلان بشيء ما.

طلب الشراب لهما بشيء من التفاخر.

قررت كايي وهي جالسة هناك أن تكون أقل تعاوناً في المستقبل عندما يسعى إلى صحبتها تارغت.

مر أسبوع تقريباً قبل أن تراه مجدداً.. أسبوع من الطقس الحار. امتنعت فيه عن الظهور على شاطىء القصر وهذا ما سيثير التساؤل.. أسبوع تزايدت فيه غيرة هارفي، وهذا أمر مؤسف غير مرضي.

كانت عائدة من السباحة بمفردها قبل الغداء عندما شاهدته يجلس تحت إحدى المظلات المقلمة خارج القصر يشرب العصير. قررت المرور به بدون التوقف عنده إلا من أجل تحية عابرة، ولكنه وقف وناداها لتشاركه شراباً بارداً..

قالت وهي تحاول أن تكون باردة مبتعدة:

- لا.. شكراً.. أين صديقتك؟

لم تقاومه كثيراً عندما أخذها بخصرها وحثها إلى طاولته سائلاً:

- صديقتي؟ آه.. تقصدين الفتاة التي كنت أتعشى معها.. رحلت بالأمس.

- هكذا عدت إليّ كالمرة السابقة حالما تركتك جميلتك الشقراء وحيداً.

- يا طفلتي.. يا طفلتي.. لست خطيبك الآن.

نظر إليها موبخاً وهذا ما أشعرها بالصغر وأغضبها من نفسها.. جلست إلى الكرسي بدون أن تتفوه بكلمة.

دخل إلى الفندق ليجلب الشراب. عندما عاد رفعت وجهها إليه.

- بدوت حمقاء.. لقد نسيت للحظة أننا غير مخطوبين وأحسست بالغيرة.

ابتسم لصراحتها، ثم جلس قربها يمد يده إلى كوبه:

- هذا يشعرني بالراحة معك. تقولين دائماً أشياء تفاجىء المرء سواء أكانت لك أم عليك.. لكن الغيرة.. لا. أنت لا تغارين من روميو الوسيم وهو يوزع عواطفه.. أليس هذا ما قلته؟

- نعم، لا أغار وما شعرت بالغيرة يوماً. هذا غريب أليس كذلك؟

- غريب جداً.. لا شك أن زوي ستقول لك بحكمتها المعهودة إن هذا دليلاً على أنك لا تحبينه.. ولكنك ربما كنت إحدى تلك الإناث النادرات المترفعات عن مثل هذا الضعف الإنساني.

نظرت إليه بريبة وهي تشعر بسخريته.

- لست كما تقول، لأنني أغار. اسمع هل تزعجك صحبتي؟

- لماذا تسألين؟

- لقد امتنعت عن رؤيتي مدة أسبوع كامل. وفي أسبوع قد تحدث أشياء كثيرة، قد يموت أشخاص أو يخطفون أو يتعرضون للخطر أو.. أو

أي شيء.

كبح ضحكته بصعوبة.. ولكنه لم يرغب في إثارة الغضب في نفسها لسبب لا تفهمه. سأل: «وهل تعرضت للخطر كابي؟»

- لا.

قال لها بغموض: «حسناً.. هناك وقت لكل شيء. أليس السيد بورتلاند قادماً ليأخذك على طريقة رجل الكهف التي تجدينها مثيرة!»

غريب كيف يستطيع لسانه أن يلدغ في وقت المزاح.

- ما أسهل السخرية على الشباب وتصرفاتهم الرومانسية. ما أسهل ذلك على رجل بارد ساخر ومتحفظ. لا أظن أن دمك ساخناً إلى درجة.. إظهار عاطفة مشبوبة.

أنهى تارغت شرابه ووضع الكأس الفارغ بلطف على الطاولة.. عندما تكلم أخيراً لم يكن في صوته أي تغيير:

- ربما كنت مخطئاً عندما أطريت طريقتك في قول ما لا يتوقعه المرء فثمة استنتاجات يستحسن ألا تقال.. أليس كذلك؟

توقف قليلاً ثم أضاف: «لا تختبري صبري كثيراً كابي، لأنك قد ترين ما لن يعجبك. قد تكون لي قدم في القبر وقد أكون بارداً، ومحافظاً، وأشياء أخرى قد أجهلها ولكنني أؤكد لك أن دمي حارّ بما فيه الكفاية لأعلمك درساً في المستقبل قد يفاجئك، فلا تعتمدي على حظك كثيراً».

وقف متمهلاً، وأخذ كوبيهما الفارغين إلى المقهى، ثم ودعها عن بعد وقفل راجعاً إلى القصر تاركاً كابي بمفردها جالسة.

عندما عادت سيراً إلى القرية، تذكرت قول زوي: «احذري فقد تتعرضين لأكثر مما تظنين».

حالما وصلت الكوخ تلاشى من تفكيرها كل شيء بسبب منظر زوي الجالسة في أحد كراسي الخيزران منهكة، رمادية الوجه. كانت أنفاسها ضيقة بشكل مخيف. هرعت كابي إلى العجوز خائفة عليها ولكن زوي أعطتها تعليمات معينة أسرعت كابي إلى تنفيذها، فما هي إلا لحظات

حتى كانت تعطيها بضع نقاط من دواء غريب.. فبعد أول صدمات الارتباك والخوف، أطاعت تعليمات كانت تجهل وجودها. وبعدما تجرعت الدواء أقنعت كابي العجوز بالصعود إلى غرفتها حيث ساعدتها على نزع ثيابها ثم وضعتها.

قالت وهي تنظر في الفراش إلى الجسد الحبيب الذي لم تره من قبل مستلقياً في الفراش:

- والآن.. ماذا عندك؟ ومن هو طبيبك؟

- لا شيء كثير، أعاني من ألم في القلب.. ضعف كما يقول الطبيب.. إنما لا تفزعي، فهو القلب.. وجدال مع هارڤي.

كان صوتها ضعيفاً:

- هارڤي.. أكان هنا؟ لم أره على الشاطىء.

- لم يأت لمرافقتك عزيزتي بل لرؤيتي.

عبست كابي فوق الوجه المتعب:

- ماذا تعنين عزيزتي زوي؟

تساءلت عما إذا كانت زوي ترتجف.. فالألم زال، وعاد تنفسها إلى طبيعته، لكنها تكلمت عن هارڤي وكأن شيئاً أكثر خطورة من مجرد جدال وقع بينهما.

- لا تأبهي عزيزتي.. اذهبي واجلبي علبة الموسيقى إلى الكوخ عزيزتي.

ضحكت كابي:

- علبة الموسيقى؟ وهل تظنين أن هارڤي حاول أخذها؟

- قال إنه يريد استعارتها ليريها إلى زبون في حانة «جولي روجر».. لكن لماذا لم يأت ويطلبها؟ لقد ضبطته في غرفة الأطفال كما كنت أضبطه في طفولته عندما كان يقوم بجمع قطع سخيفة ليبيعها في دكان بيع القديم في ميريانبورث.. صحيح أن لا قيمة لما كان يسرق ولكنها ملك لعائلتي.. وأنا أحرسها..

بدت الغرفة الصغيرة ضيقة.. بدأت زوي تعرق.. فانتزعت كابي عنها الدثار ثم أرخت الشراشف المشدودة فوقها، وقالت بلطف:

ـ لقد مزجتِ بين اليوم والأيام الماضية عزيزتي زوي.. لماذا يأخذ هارڤي علبة الموسيقى ما دام الفضل يعود إليه في إصلاحها؟

ـ آمن بما تراه كما يقال ولكنك يا آنستي الشابة تسيرين إلى الهاوية.

قالت كابي لها: «دعك من هذا الآن. أريد معرفة اسم طبيبك ورقم هاتفه، ثم حاولي أن تنامي.. لا تقلقي على علبة الموسيقى فهي بأمان».

ـ هذا محتمل، إنما أحضريها إلى هنا على أي حال حبيبتي، فأنت تحبين هذه القطعة القديمة.

وافقت كابي من غير جدال. أما زوي فأغمضت عينيها، وتركت عضلات وجهها تسترخي.

عندما نامت زوي، هرعت إلى غرفة الهاتف القريبة لتتصل بالطبيب. كانت مشتتة الأفكار بسبب خوفها على زوي وبسبب ما قالته عن هارڤي هذا عدا ذكر تارغت الذي عاد إلى تفكيرها بطريقة تبعث الرعدة في أوصالها. شعرت بشوق إلى السعي إليه طلباً للراحة عنده، ولكنها لم تخسر بسبب فرارها منه حقها في اهتمامه بها، بل خسرت حق الادعاء بأن تكون صديقة بسبب ما حدث هذا الصباح بينهما.

جاء الطبيب بعد الظهر باكراً، عاين زوي ثم أجاب عن أسئلة كابي الملحة بغموض غير مرضي.. كان هو نفسه الطبيب الذي داوى أمراض طفولتها في عطلات الصيف، ولكنه كحاله دائماً غير صبور أمام الأسئلة.

قال وهو ينظر إلى كابي نظرة استنكار:

ـ كان قلبها متعباً منذ سنوات.. يجب عليها ألا تضع على كاهلها مشاكل الصغار.

ـ لم أكن أعرف.. أتظن أن عليّ الرحيل عندما تصبح أفضل حالاً؟

رد بصراحة وقحة: «بكل تأكيد، لأن وجودك يزيد من أعبائها.. اعلمي أنها لن تموت فجأة، ولكن الإثارة تضر بها. لقد قطعت العمر

الذي يسمح لها بالتنظيف وراء الشبان أو بإزعاج نفسها ببدعهم الأنانية».

ردت كابي وبريق أخضر في عينيها:

ـ لست طفلة يا دكتور ساوثي، أنا قادرة على العناية بزوي بل قد أساعدها.

ـ كم عمرك؟ تسعة عشر عاماً؟ على من هم بمثل عمرك التعقل ولكنني لا أعرف إلا أنك تطوفين في المنطقة كلها مع ذاك الفتى الشاب الذي ترعرعت معه.

ـ هارڤي بورتلاند؟

للحظات دهشت لأنه يعرف شؤوناً خاصة تتعلق بها فقد نسيت قوة الشائعات في القرية، ولكنه نجح في بعث الدم الحار إلى وجنتيها إذ قال:

ـ هل سيتزوجك؟ إنه على علاقة مع كل فتاة جميلة الطلعة في الجوار، وقد تركهن كلهن. ولكن الشائعات تقول إنه يريد الاستقرار.. أتعرفين شيئاً عن هذا؟

ـ لا.. لكن الشائعات تطوف دائماً في القرية، أليس كذلك؟

ـ أجل.. نادراً ما يخفى شيء عن أهالي القرية خاصة منهم الطبيب المحلي. خذي على سبيل المثال ذلك المحامي المقيم في القصر، الذي تعرفت إليه.. كان يجب أن يكون هنا في شهر عسل، ولكن العروس تخلت عنه في آخر لحظة.

ـ حقاً؟

ـ إنه شخص غريب الأطوار إذ كيف يبقي على خططه بدون أن تهتز له شعرة.. أما آخر خبر سمعته فهو أن السيدة قادمة لتقضي عطلة الأسبوع هنا وهي تبغي الصلح.. حسناً.. اتبعي تعليماتي وامنعي العجوز عن الحركة. سأزورها غداً.

ذهب الطبيب قبل أن تسترد كابي أنفاسها لترد. وفيما هي واقفة أمام باب زوي أحست بنقاط العرق تتصبب من يديها وجبينها يرافقها موجة دوار مفاجئة.. لقد شعرت بالراحة عندما علمت أن أهالي القرية يجهلون

صلتها السابقة بتارغت ولكنها لم تشعر بالراحة عندما علمت بأن الحب القديم يوشك أن يلتئم... فهل داندي آتية فعلاً في نهاية الأسبوع؟ فإن كانت قادمة فهذا يعني أن تارغت دعاها..

لماذا لم يخبرها؟ لماذا فعل ذلك؟ ألم يكن مستعداً لتقديم كتفه لها؟ ألم يظهر لها بعض الحنان؟

كان وصف ماري لو يعود ليزعجها..

صاحت: «يا الله! يا الله!» ثم أجهشت بالبكاء.

كانت قد تركت الباب الأمامي مفتوحاً لتسمح للهواء بالتسلل إلى المنزل. عندما سمعت وقع أقدام على الدرج لم ترفع رأسها.. فهارڤي وحده هو من يدخل ويخرج بدون دعوة. وهو معتاد على نوبات الأسى منذ طفولتها، لذا لن تشعر بالإحراج أمامه الآن.. في الواقع إنها بحاجة إلى مواساة إنسانية، هذا ما فكرت فيه، وهي تحس بذراع تلتف حول كتفها، وبيد تدير وجهها إلى صدره.

قالت وهي تنتحب:

ـ أوه.. هارڤي.. ما أشد بؤسي..

لم يتكلم للحظات، بل أحكم إمساكها وراحت أصابعه الباردة تداعب بشرتها الحارة، فشعرت بنوع غريب من الأمان.

قال صوت تارغت من فوقها:

ـ أنا لست معجبك المحب.. إنما إبكي ما شاء لك ذلك.

انتفضت انتفاضة جعلته يمسك بها لئلا تقع.

صاحت: «تار.. تارغت!»

فجأة أدركت أنه من غير الضروري التمسك برواية البكاء من الغضب. ولولا انغماسها في يأسها لعرفت فوراً أن يدا هارڤي لم تلامساها هكذا قط، ولعرفت كذلك في لحظة حقيقة مدمرة، أنها على وشك الوقوع في حب تارغت.. وأنها تود لو تتخلص من كل الفرص قبل أن تعطيه الوقت ليعرفها أكثر.

صاحت وصوتها ملؤه الهزيمة:

ـ أوه.. تارغت!

وبكت بين ذراعيه بقوة مضاعفة.

* * *

٨ ـ عندما يُباع الحلم

لاحقاً، بدأت تتساءل كيف لها أن تكون عمياء فلا تدرك أن كل الراحة التي كانت تنشدها منذ الطفولة موجودة بانتظارها.. وأنه حتى بدون إدعاء الحب مستعد لتقديم حمايته وإرشاده ودفء صحبته، ولكنها رمت كل هذا في وجهه.. أما من ناحيتها فكان بإمكانها إبعاده عن حبه الآخر حتى ينساه، فكما تغيرت مشاعرها تجاه هارڤي كانت ستتغير مشاعره تجاه داندي.

الآن، وهو يضمها ويهدىء روعها، ويمسح عينيها بمنديله شعرت بالندم الشديد على الفرص الضائعة. رغبت في إخفاء مشاعرها تجاهه لأن الوقت متأخر على التوسل إليه من أجل بداية جديدة.. فلو عرفت بحبها له منذ أسبوع، لدفعت نفسها إلى درجة الوقاحة المتهورة ولطلبت يده مرة أخرى.. ولكن، إن كان الشائعة صحيحة وزيارة داندي مخططاً لها، فلن تستطيع رمي نفسها عليه والمخاطرة بتلقي السخرية التي مهما غلفت بالرقة ستكون مذلة لهما في آن واحد.

استطاعت الحفاظ على سرها لأن تارغت الذي عرف بأمر نوبة زوي القلبية اعتقد بأن كايي حزينة بسبب ما أصاب العجوز، فراح يهدىء روع كايي قائلاً أن لا داعي إلى الذعر.

قالت له كايي:

ـ أنها قلقة على المستقبل.. فإذا بيع التينرز، وأخرجت من الكوخ

فإلى أين تذهب؟ أظنها أخفت حالة قلبها لأنها تحس إن ذهب البيت أنها ستوضع في مأوى للعجز، وهي تكره هذا.

ـ هذا صحيح.. يجب أن نأمل ألا يحدث مثل هذا الاحتمال.. إنما حتى ولو اضطرت إلى ترك المنزل فستجد لها كوخاً، إيجاره معقول.. ألديها مدخرات؟

ـ أجل لديها مبلغ محترم هذا عدا تقاعد الشيخوخة. لن تجد مكاناً يستطيع أن يحل محل هذا المكان العزيز على قلبها.

تقدمت إلى النافذة، وقد جفت دموعها.. هز رأسه غير موافق على كلامها وفي ابتسامته الحنان..

ـ لم تشاركك زوي يوماً في الحلم بالمستحيل.. التينرز بالنسبة لها منزل قديم، فيه بعض ذكريات أيام صباها، والكوخ هو مكان راحة لها.. هي على عكسك لا تتوقع يوماً المعجزات..

قالت بلطف:

ـ لم أعد أتوقع المعجزات.. بل لا أظنني توقعتها يوماً.. لأنني عرفت في قرارة قلبي أنها مجرد أوهام ولكنه كان عالماً خاصاً أهرب إليه، فالحلم لا يكلف شيئاً.

سمعت التنهيدة الحادة النافذة الصبر، التي تنطلق منه عادة حينما تمتحن منطقه.. أجاب بشيء من الندم، بدل نفاد الصبر:

ـ لا.. الحلم لا يكلف شيئاً.. فلا تخسري الحلم، رجاء كايي! فأنا أحسد الحالمين.

سألت بشيء من الخجل: «وهل فقدت حلمك؟»

ربما وجد السؤال غريباً.. لأنها تنكر عليه عادة قدرته على الحلم. رفع حاجبه وقال:

ـ ليس تماماً. أعترف أنني كنت في وقت ما مثبط الهمة لكن أحلامي بدأت تسترد نشاطها.

لم تقل شيئاً ولكنها تذكرت تلميحات الدكتور ساوثي، فتبادر إلى

ذهنها فجأة بيت شعر قديم منسي يقول: ليكن وطأك خفيفاً لأنك تطأ على أحلامي..

ـ من قال هذا؟

ـ إنه الشاعر «تيس» أجل كابي تذكري هذا، ليكن وطأك خفيفاً.

نظرت إليه بحيرة.. هل يقدم لها نصيحة بالنسبة لعلاقتها مع هارڤي؟ إنما لا داعي إلى الرقة مع هارڤي لأن أحلامه شفافة هشة تتعلق بالشهرة والثراء والتزلف، وبتلك الخيالات المراهقة التي تشاركاها والتي لم تكن قط أكثر من تمثيل.

قال: «بمناسبة الحديث عن الأحلام، لقد أهملت واجباً يجب أن تعوضي عنه.. لم ترافقيني حتى الآن إلى بئر الأمنيات».

لكثرة ما تحدثت عن بئر الأمنيات، بدا من الغريب أنها لم تجره حتى الآن إليه..

قالت بذهول: «أووه..»

أضاف بإصرار: «أم تراه مكاناً مقدساً، لا تشاركينه إلا مع من يؤمن به؟».

تذكرت أنه راقب من مكان مشرف تلك «الوصلة» الرومانسية التي جرت بينها وبين هارڤي عندما ذكرا أمنياتهما ضاحكين.

ردت وهي تحاول استعادة لا مبالاتها القديمة.

ـ أبداً.. ولكنني ما ظننتك مهتماً بخرافة طفولة.

ضحك ثم هبَّ واقفاً عن الكرسي الهزاز، مادّاً ظهره وكأنه يحس بالتقلص.

ـ هذا كلام يليق بكابي التي أعرفها.. أشك في أنك تعانين من شيء ما لأنني لا أراك الآن كما عهدتك دائماً.. حسناً، متى تصحبينني؟

ردت بلا اكتراث: «متى أردت».

وحتى لا يرى ضعفاً في تصرفها الذي يتوقعه منها أضافت بشموخ.

ـ أتتوقع أن تكمل عملك من حيث توقفت بعدما زال ما يشغلك؟

ـ أتظنيتني مهملاً؟ كنت مشغولاً بقضية وهي القضية ذاتها التي شغلتني في الأسبوعين الأولين على وجودي هنا هذا سبب إهمالي.

ـ قضية..؟ ولكن المحاكم في عطلة.. وهذا يعني أن لا مجال لشيء كهذا في الوقت الراهن.

ـ لا.. أبداً.. لكن هناك دائماً العمل التحضيري الأول، وهذه القضية بالذات تحتاج إلى القليل من التحضيرات.

سألته لأنها شعرت بالغباء لا لأنها تريد معرفة ماهيتها: عمّ هي؟

لم يكن قد بحث معها قضية قط، فهو يقول دائماً إن الأعمال القانونية مملة.

أجابها: «في هذه اللحظات لا أدري.. فما لدي من معلومات تبدو متناقضة. على أي حال، هناك وقت للتوضيح، ولقد بدأت الأمور بالتبلور».

ـ وهل ستربحها؟

ـ أظن هذا.. أجل.. بدأت أعتقد أنني سأربحها.. والآن هل هناك ما أستطيع فعله لزوي؟ هل بإمكانك تدبر أمورك حتى تستعيد صحتها؟ أجل.. بكل تأكيد أنت قادرة.. حسناً، إذا كان هناك ما تريدينه فاتصلي بي.. سأزورك غداً على أي حال.

بدأ يستعد للخروج، وفيما كان ماراً بطاولة عمل زوي، لمح العلبة الموسيقية قرب ماكنة الخياطة، فسأل:

ـ ماذا تفعل هذه هنا؟ ألا يمكنك تحمل فراقها؟

ـ جئت بها إرضاء لزوي. تعتقد، ويا للغرابة! أن هارڤي يريد سرقتها.

لم يبتسم كما ظنت، على خيال امرأة عجوز، بل وقف يحدق إلى العلبة.. ثم قال بحدة:

ـ بورتلاند؟ ومن أين لها هذه الفكرة؟

ـ يبدو أنه جاء هذا الصباح وكان أن ضبطته في غرفة الأطفال.. قال

إنه يريد استعارتها ليريها لزبون في حانة «الجولي روجر» وبسببها جرى جدال، وأظنها بعد هذا الجدال وقعت مريضة.

- هل كان جدالاً أم شجاراً مشتعلاً؟ على زوي أن تتجنب توتراً كهذا. ربما شجارهما السبب في نوبتها القلبية.. لا تكوني واثقة يا طفلتي بأن دوافع «روميو» بريئة كما تبدو.. أعتقد أنه بحاجة دائمة للمال.

ردت بغضب، حتى قبل أن تستوعب كلامه:

- ليتك لا تسميه «روميو»!

- أليس هو روميو بالنسبة إليك؟ أو هذا ما تتمنيه على الأقل؟

أشاحت بصرها عنه متذكرة أن عليها أن لا تسمح له بمعرفة ما أصبح في قلبها.

- أظن أن من الوحشية التلميح إلى عدم أمانته لمجرد.. لمجرد إعجابه بي.

وافقها الرأي بلطف:

- أجل.. أليس كذلك؟

لم تقصد أن تلمح إلى أنه يغار، لأنه أوضح أنه لا يغار. قالت وهي تحاول دفع نفسها إلى الغضب، لأنها إذا كانت ستبكي مجدداً فعليها اللجوء إلى العذر القديم لتواجهه به.

- يجب ألا تحكم بدون أن تسمع الدفاع، فهذه هي مهنتك.. ألا يقول القانون إن المتهم بريء حتى تثبت إدانته؟

- صحيح تماماً.. لكنك من تحتج كثيراً.. أنا لم أفعل سوى رمي كلمة مناسبة في أذنك.

- بل فعلت أكثر من هذا! إذاً.. ما دام رأيك بأخلاق هارفي بهذه الوضاعة، فكيف تكون مستعداً لـ.. لتسليمي إليه؟

وقف جامداً للحظة، ينظر إليها من تحت أهدابه الكثيفة، وفمه يرتجف قليلاً، ثم تقدم إليها، وأخذ وجهها بين يديه قائلاً:

- آه! يا مسكيتي كابي.. ما أشد جهلك بشؤون قلب الإنسان، أو

بالخدع التي نمارسها نحن البشر.

لولا الجهد الذي تبذله لمقاومة الدموع لأحست بالتغيير الذي طرأ على صوته. لكنها لم تكن ترى إلا أنه يلعب لعبة خاصة به، لا تجد لها أية سعادة، فجذبت نفسها بعيداً عنه.

قالت كطفلة متمردة ضد الظلم:

- ما هو الخطأ في استعارة العلبة الموسيقية على أي حال؟ هارفي هو من دفع أجر تصليحها، وهو أجر مرتفع وهو لم يصلحها إلا إرضاء لي.. وهذا ما يعطيه بعض الحق طبعاً.

دس تارغت يديه في جيبيه، وبدأ يسير نحو الباب.

- حسناً.. في الواقع، لم يصلحها بل أنا من طلبت إصلاحها من أجلك كمفاجأة صغيرة.. لكن، بما أنك أفسدت كل البرنامج بفرارك، ووصولك إلى هنا باكراً، لم تعد إلى غرفة الأطفال في الوقت المناسب.

واختفى.

قالت كابي لزوي وهي تأخذ لها صينية العشاء:

- كنت تعرفين.. أليس كذلك؟ ظننتك تلومينني عندما تكلمت عن دوراني في حلقات مظلمة. لماذا لم تخبريني؟

أسندت زوي نفسها على الوسائد، وبدأت تأكل البيض المقلي بتلذذ.. ثم قالت بعد قليل:

- لم يرغب السيد تارغت في إخطارك. طلب مني أن أتركك على ظنك بأن هارفي الفاعل ما دام ذلك يسعدك.. قال إنه شيء له علاقة بالأحلام والخيالات.

ابتسمت كابي لا إرادياً.. لقد أصبح إذن تارغت، عضواً مقبولاً في عائلة زوي.

قالت وقد غشيت الدموع عينيها:

- لماذا ادعى هارفي بأنه من أصلحها؟ ولم يكتف بالادعاء أمامي بل تعداه إلى تارغت وهذا أمر غير لائق.

ـ لم يكن يعرف أن السيد تارغت هو من أصلحها، بل ظن أنني الفاعلة.. أما لماذا تابع الادعاء.. فأقول إنه اعتاد على الادعاءات دائماً. لقد غذى خيالك في طفولتك حتى تصدقي ما يختار أن يقوله لك.. وأضيفي إلى ذلك حبه للتبجح.

أجل.. إنه يحب التبجح فعلاً، ولكن كيف تحول الولد البهي الطلعة إلى رجل لا يتحمل المسؤولية.

قالت ببطء: «إن كانت العلبة تُصلّح عندما وصلت فهذا يعني أن تارغت كان هنا قبل..»

ـ حسناً.. كان عليه أن يجري الترتيبات للحجز في القصر، أليس كذلك؟ وفي ذاك الوقت زارني لأن لي اليد الطولى في تربيتك.. هذا البيض المقلي لذيذ جداً، لذيذ حقاً آنستي الشابة.. لقد علمتك كيف تطبخين على الأقل، وهذا ما سيفيد سيداً محترماً مسكيناً في يوم ما.

بدت زوي على سجيتها، حتى أن كابي وجدت صعوبة في التصديق بأنها منذ بضع ساعات بدت تحتضر.. قالت كابي باحتجاج متزن:

ـ لا أظنك كنت صادقة معي عندما ادعيت أنك لم تلتقِ بتارغت من قبل.. إنه أمر لطيف الصمت عن شيء لأسباب الشهامة، إنما من غير اللائق خداع فتاة صغيرة تثق بك.

نظرت إليها زوي وهي ترد بحدة:

ـ الفتيات الواثقات يستحققن الخداع، آنستي الشابة. أنا لم أدعِ شيئاً وأنت ما سألتني إن كنت أعرفه.. فلماذا أقول لك انني أعرفه؟

ـ أجل.. أعتقد أن هذا صحيح.. ولكنني في كل حال أظنك أخفيت عني أموراً كثيرة، فمثلاً كنت تعرفين أن تارغت سيقيم في القصر قبل أن أعرف بمدة طويلة.

ـ وما الفرق؟ لو أخبرتك قبل أن تكتشفي أنت ذلك فهل كنت ستهربين؟

صمتت كابي تحاول التفكير في مزاجها الذي كان في تلك الأيام

الأولى.. ثم قالت وهي تجيب زوي بغموض:

ـ لا أدري.

كانت قد بدأت تتساءل عما إذا حان الوقت للفرار ثانية، ولكن قلبها هو من يملي عليها القرار هذه المرة.

سألت بعفوية قدر استطاعتها:

ـ هل ذكر تارغت أنه قد يستقبل أحداً في نهاية الأسبوع.. قريباً؟

لم تظهر زوي اهتماماً، حتى ولو كانت تعرف شيئاً:

ـ لا أعرف.. قد يستقبل محامياً صديقاً، حجز له غرفة ليستمتع بهواء البحر بعد هواء المحاكم الفاسد.

ـ ليس سيداً.. بل سيدة.. ذكر دكتور ساوثي شائعات عندما كان هنا.

ـ ذلك الثرثار المتبجح العجوز! لا تهتمي لما يقوله.. هذا خارج نطاق عمله، عادة تثرثر الشائعات النساء وهو يسمعها منهن في عيادته، ولكنه ربما أمسك بغير طرف العصا.

جاءت كلمات زوي بحدة تظهر اشمئزازها فكان أن رفعت معنويات كابي التي صاحت وهي تكاد توقع الصينية من شدة لهفتها إلى معانقة العجوز.

ـ أوه.. حبيبتي زوي.. كم أحبك! كان تارغت سيخبرني طبعاً لو دعا ضيفة وبعد التفكير في الأمر أجد أنه سيتغيب بضع أيام من أجل قضية يستعد لها، لذا أتوقع أن تكون خطوط الشائعات متشابكة.. أتعلمين زوي.. إنها المرة الأولى التي أرى فيها شعرك على كتفيك. أعرف أنه جميل دائماً، لكن هذه الكتلة الفضية المنسدلة إلى كتفيك كالعباءة تجعلك تبدين كملكة الثلج في القصة الخرافية.

ـ أغربي عن وجهي أنت وقصصك الخرافية! سأكون لك شاكرة إن ضغرته لي قبل قدوم الليل كابي.. فالحرارة شديدة.

قالت كابي بعذوبة:

- أتعلمين يا عزيزتي زوي أنك عاقلة حكيمة كتارغت.. لكل منكما القدرة على التحمل.

- إذن.. من المؤسف أنك لم تكتشفي هذا من قبل أيتها الشابة، أنت لم تنظري إلى أبعد من أنفك الجميل أو إلى أبعد من وعد بحب لا يذهب إلى أبعد من غرفة النوم.

دفعت زوي صينية العشاء بعيداً بسخط وقالت إنها تريد أن تستقر لتنام.

حينما جاء الطبيب في الصباح كانت زوي قد خرجت من الفراش في مزاج لا يقبل التعنيف أو طلب الراحة. ولأن الدكتور ساوثي، لم يتلق المزيد من التعاون من مريضته، تمتم ساخطاً ورحل.. لم تخف موجة الحر ذلك اليوم، ووصل تارغت حاملاً سلة مليئة بالأطايب للمريضة ولكنه لاحظ أن كابي بحاجة إلى عناية مختارة أكثر من العجوز فقال:

- عيناك متورمتان طفلتي.. هل قضيت الليل مستيقظة تهدئين من حرارة صدغيها؟

لم يكن جاداً في كلامه، ابتسمت زوي وقالت معلقة بسخرية:

- لست سبب عدم نومها بل انشغال رأسها بالأفكار المقلقة. هل تصحبها إلى مكان ما سيد تارغت، وتدللها قليلاً؟

صاحت كابي ساخطة:

- إن كنت تظنين أنني ما زلت طفلة وبحاجة إلى معاملة خاصة فقد أخطأت يا زوي. أتعتقدين أنني قد أتركك هنا بمفردك حتى ولو كان تارغت راغباً في اصطحابي؟

ردت زوي: «أعيش بمفردي منذ سنوات أما قلبي العجوز فليس بأمر جديد. لن أبقى مكتوفة اليدين وأنا أراك قلقة علي وكأنني متخلفة عقلياً».

- بالطبع لا.. لو سمحت لي لقمت بأشياء كثيرة بسبب الطبخ والتنظيف أصابك ما أصابك.

التقطت كابي وهي تتكلم قطعة ثياب عن الأرض قبل أن تنحني زوي

لتلتقطها، ولكنها لم تتلق سوى نظرة سخط كشكر لها.

قال تارغت:

- يشعر المرء بالانزعاج عندما يتلقى التدليل والحماية من أصحاب النية الطيبة.. يبدو لي ذلك كالهمس والسير على رؤوس الأصابع في غرفة مريض.

ردت كابي باختصار:

- هذا ممكن إن أحسست بأنك لست بحاجة لحماية.. لكنني لن أعترض على قليل من الدلال إذا قدمه لي أحدهم لأنني للأسف لم أحصل على الكثير منه.

قال تارغت:

- خصوصاً الشعور بالعزة. حسناً الآن، أظن أن زوي على حق. حضري نفسك ستخرج ساعة أو يزيد.

لأنها أرادت تصحيح غلطتها بشأن العلبة الموسيقية ولأنها اكتشفت ما جرى بالضبط بينه وبين زوي من وراء ظهرها ذهبت من دون أن تعترض لتحضر نفسها.

قال تارغت لزوي، ما إن أغلق الباب خلف كابي.

- هذا صحيح.. أليس كذلك؟ لم تتلق الكثير من الدلال في طفولتها.

تابعت زوي الخياطة وردت بدون أن ترفع عينيها:

- أجل.. قامت العمة ميرا بواجبها تجاهها إنما بدون حب.. أظن أن من الصعب على امرأة مثلها أن تتحمل المسؤولية.. كانت كابي فتاة صغيرة، تسعى دائماً للتعويض عن الحب الذي تفتقر بخلق صور ما لنفسها.

- إذن، وجدت تلك الطفلة تعويضها هنا، معك، مع المربية في المنزل القديم الذي تظاهرت بأنه مملكتها، وفي هارڤي الصغير..

- كان هارڤي فارس أحلام أية فتاة صغيرة سريعة التأثر.. له سحر أبيه، وموهبته في التمثيل..

قال تارغت بصوت رقيق:

ـ إنه ابنك.. أليس كذلك زوي؟

رفعت بصرها إليه مبتسمة، وردت غير دهشة:

ـ أجل.. أحست بأنك ستلاحظ التشابه. كيف عرفت؟

ـ ربما السبب طبيعة مهنتي وحدة نفاد بصيرتي بالنسبة للعلاقات الإنسانية.. ثم لا أرى فيك جو المربية العانس التي تعيش مع أولاد الآخرين.. أيعرف هذا؟

ـ أبداً. وهذا سر سيظل بيننا سيد كارسون.. لا يعرف أحد الحقيقة إلا عائلتي التي آزرتني وهي الآن مشتتة، فمعظمهم مات والبيت القديم معروض للبيع.. وهكذا سيبقى الماضي ماضياً.

ـ وذلك العم الذي اعتاد البقاء معه في العطلات؟

ـ لم يكن الرجل الذي أحببته.. مع أنه كان مستعداً للزواج بي، ولكنني ما استطعت الاستقرار في مزرعة، وتحمل متطلباته الصعبة الإرضاء.. ولكنه كان رجلاً طيباً، أعطى هارفي منزلاً واسماً وقد ظلّ مغرماً بي حتى يوم مماته، يا للمسكين! لا تعرف النساء أبداً ما هو الأفضل لهن حتى يفوت الأوان سيد كارسون، فتذكر هذا.

قبل أن تنهي كلامها، كان تارغت قد نهض وتوجه إلى الباب غير المقفل والذي تحرك في الهواء فجأة. فتحه بسرعة وقال بأدب:

ـ ادخلي كايي.. لقد قادتك عادة استراق السمع إلى المتاعب من قبل، ولا أرغب في المزيد من سوء التفاهم.

دخلت إلى الغرفة ببطء وعيناها متسعتان. كانت قد ارتدت الفستان الأخضر إرضاء له، وربطت منديلاً عريضاً أخضر اللون لترجع شعرها الطويل عن وجهها.. أخذت تلوّح بحقيبة يدها متوترة من الصمت الذي ران على الغرفة. كانت تشعر وكأنها طفلة نظيفة أنيقة مستعدة للخروج، قاطعت الكبار في لحظة خاطفة.. ولكنها تمكنت من النظر إلى تارغت وردت عليه بوقار:

ـ لم أسترق السمع. كان الباب مفتوحاً، ولم أتمكن من منع نفسي من سماع حديثكما.. زوي..

راقبها تارغت بفضول.. إنها لحظة عاطفية، من المتوقع أن تتحول إلى إحراج، أو شفقة، أو حتى توبيخات باكية. ولكن كايي لم تفعل شيئاً من هذا القبيل، بل أحنت رأسها وابتسمت لزوي بمحبة، وقالت بصوت عادي:

ـ أنا سعيدة لأنني سمعت.. أظنني أحسست دائماً بأن هناك شيئاً، مع أنني لم أفكر فيه ملياً. أنا فخورة بك زوي، وشاكرة لك لأنك سمحت لي بالمشاركة. أنا مستعدة تارغت إن كنت ما تزال راغباً في الذهاب.

لف ذراعه حولها مبتسماً ثم أدارها بلطف نحو الباب، وكأنه يطريها بصمت.. فكايي عندما تدعو الحاجة يعتمد عليها.

ـ هيا بنا إذن. سنجد لنا مكاناً بارداً نقف فيه فهذه أجمل طريقة لقضاء الوقت.

تبادل نظرة رضى مع زوي من فوق رأس كايي.

قال لها وهما يجلسان في مطعم طلبا فيه كركند قررا تناوله في الهواء الطلق.

ـ يا طفلتي المسكينة كايي! تتكدس الأحداث على رأسك مؤخراً، يجب أن أعترف أنك قادرة على الوقوف في وجه المصاعب بصلابة نادرة.

ردت تدافع كالمعتاد:

ـ وهل توقعت مني أن أصاب بالهستيريا؟

لكنه، كان ينظر إليها بحنان لا ريب فيه، فمالت ميلها إلى العدوان.

أجابها: «بل على العكس، أحترم كثيراً تلك الميزات التي تجاهدين بقسوة إلى إخفائها. أنت لم تعطيني قط فرصة رؤية ما تحت القشرة، أليس كذلك طفلتي؟»

قالت بشيء من العجز: «أنت لم تنقب جيداً قط».

ابتسم لها: «ربما لم أحتج للتنقيب.. فأنت تكشفين كل شيء بطريقة

لا واعية وقد تجدين التساؤل والبحث أمرين مضجرين، ستطلبين مني على الأرجح أن أهتم بشؤوني».

ـ لكنك لم تكن قط متملكاً.. اعتقدت..

ـ اعتقدت أنني بارد بسبب خطوبة لم تصل إلى نتيجة.

بدا عليها الحرج فأخذت تحاول إخراج ما بداخل الكركند من طعام.. وقالت:

ـ ليس بالضبط.. لم نكن متحابين، وليس هناك سبب إلى.. فقط..

ـ لكنك أصبت بخيبة أمل بسبب انعدام الحب في ما بيننا.. أوه.. يا طفلتي.. هل ظننت، بسبب تربيتي أن لا غرائز طبيعية عندي؟ لكنك ظننت هذا فعلاً.. بالأمس فقط أبلغتني أنك لا تعتقدين أن دمي حار بما فيه الكفاية للشعور بعاطفة مشبوبة.

بالأمس فقط.. لقد بدا أن الأمس كان دهوراً.

بدأت تقول بارتباك:

ـ تارغت.. أنا لم أعتذر منك على كلماتي الفظة التي قلتها، ولم أشكرك حتى لإصلاحك علبة الموسيقى.. كان من الطبيعي أن أعتقد أنه هارفي، أتفهم هذا.. لماذا لم تقل لي الحقيقة ذلك المساء في منزل زوي؟

ابتسم ساخراً، ورفع حاجبه:

ـ بدا لي أن الأمر غير مهم وقتذاك. ثم لم أرغب في إحراجك أكثر مما أحرجك ذلك الشاب، في إفشاء سر خداعه أمام الجميع.

ـ لكن زوي عرفت ولم تتفوه بكلمة.

ـ كان لزوي عذرها بالامتناع عن إخطارك. هناك مسألة أمومتها لهارفي. حذار أن تفضحي سرها في نوبة غضب إذا تخاصمتما.

قالت كابي بلطف: «لا أظن ذلك إهانة ولكنني لست ممن يبوح بالأسرار في نوبة غضب».

ـ ما ألطفك! وما أشد إخلاصك للناس.. إذن لم يجعل هذا الخبر

الأمور مختلفة؟

ـ ولماذا يجعلها مختلفة؟ أنا وزوي وهارفي عائلة تقريباً.. لا تسيء فهمي تارغت.. في طفولتي كنت أشعر بقرب شديد لهارفي.. ولكننا كبرنا متفرقين.. أشعر بأن بيننا رباطاً عائلياً وإحساساً بالانتماء.

ـ عندما كنتما صغيرين كان لفارق العمر الذي يبلغ أربع سنوات تأثيراً فابن السابعة عشرة قادر على التأثير في ابنة الثالثة عشرة، أما الآن فأنت مساوية له فإن كنت تبحثين عن صورة الأب فأنت بحاجة إلى رجل أكبر منه سناً.

لم تسارع إلى الرد ولكنها عندما تحدثت قالت:

ـ أتظن أنني بحاجة إلى صورة أب تارغت؟ يبدو لي ما تقول ضيق تفكير.

بدا في عينيه وميض سريع وهما تطوفان بكسل على وجهها، فشعرت بأنه يشاركها عواطفها، وأنه يعتبر نفسه في هذا الدور.. ثم رد:

ـ ليس بديلاً عن زوج.. فقد يرفض من تختاريه زوجاً استخدامه وسادة أمان. والآن، هلا أنهيت طعامك لأن علينا العودة إلى زوي، ولكن هل تصحبيني إلى بئر الأماني ونحن في الطريق؟

كان يحاول مسايرتها بدون ريب، إنما في صوته وعينيه دفء. عندما أوقف سيارته أمام الشاطىء لم تعارض بل تركته يقتادها حتى المرتفع الصخري الذي منه يبتدىء الممر الوعر المتجه صعوداً.. لكنها في القمة، توقفت قبل أن تصحبه إلى البئر الدفّاقة.

قالت: «لن تسخر مني.. أليس كذلك تارغت؟»

كان على وجهه نقاد صبر تبعه نظرة حزينة:

ـ لا.. لن أسخر منك يا طفلتي.. أريني مزارك المقدس، واسمحي لي أن أقدم التماسي.

قدما أمنيتهما. ثم وقفا يصغيان إلى خرير الساقية الذي كان يقطع سكون الحر المرتد من الصخور.. أحست كابي بشوق غير منطقي إلى أن

يضمها بين ذراعيه، كما فعل هارڤي عندما كان يراقبهما من القصر وذلك حتى تعرف للمرة الأولى والأخيرة، ما إذا كان الذي تشك فيه حقيقة أم لا.. لكنه على ما يبدو لم يكن مستعداً إلى إرضاء رغبة عابرة إذ اتكأ إلى الصخور وراح ينظر إليها مفكراً من تحت جفنين ذابلين.

ـ حسناً.. فلنأمل أن تتحقق أمنياتك كايي.. أكانت هي نفسها؟

احتدَّ صوتها لأن أملها خاب.

ـ إن قلت ما هي أمنيتك لم تتحقق.. أشك في أنك تمنيت أمنية أبداً.

رد ببرود: «بل تمنيت وحتى أخضع للتقاليد لن أقول ما هي. والآن.. هل نعود.. سيري وئيداً في هذا الممر، فليس هناك ما تهربين منه هذه المرة».

في الصباح توجهت إلى غرفة الهاتف القريبة واتصلت به تدعوه إلى فطيرة أخرى من فطائر زوي التي تُقدّمها ذلك المساء.. عندما اتصلت بالقصر، قيل لها إن السيد كارسون قد سافر إلى لندن بدون أن يذكر متى يعود بالتحديد. ضربت كايي سماعة الهاتف وهي تشعر بأنه غشها.. فكرت وهي تسير إلى الشاطىء غاضبة بأن تسلي نفسها بكيس من الحبّار المسلوق. راحت تتساءل لماذا سافر هكذا بدون أن يقول لها كلمة، تعلم أن لسفره علاقة بالقضية ولكنه بدون ريب كان يعرف بها بالأمس.. فلماذا لم يخبرها؟

تذكرت رغبتها في أن يعانقها عند بئر الأماني، فكرت.. ترى هل هرب بعدما شعر بتغيّر مشاعره، الأمر الذي لن يؤدي إلا إلى إحراجه؟ أصبح ولعه بالمزاح اللطيف والتوبيخ المؤدب أحياناً مألوفاً عندها. بدا مستمتعاً بصحبتها، يغامر في القيام بتصرفات حميمة لم يقم بمثلها أيام الخطوبة، ولكنه أكّد لها منذ وصوله أنه لا ينوي أبداً ملاحقتها لاستعادة علاقتهما.

انصبت أشعة الشمس الحامية على رأسها غير المحمي.. كانت رائحة شباك الصيد ورائحة السمك، والروائح البحرية الأخرى طاغية على

كل شيء ولكنها أحست بحرارة شديدة، غير أن الكسل الذي تشعر به منعها من التحرك نحو الظل. ظلت أفكارها منصبة على تارغت.. هنا جلست معه وهنا علمته كيف يأكل قطع الحبّار بالخشب. في ذاك اليوم بالتحديد الذي أرته فيه التيرز وفي ذاك اليوم راح يراقبها وهي ترقص في غرفة الأطفال، وهناك التقطها فجأة ليعانقها.. أفي تلك اللحظة بدأ يتعرف إليها؟ تذكر أنها رأت الحنان في عينيه وهو حنان لم تكن تره من قبل، أفي تلك اللحظة تمنت لو لم تتسرع في الفرار؟ إنما ربما لا وجود لتلك القضية العويصة التي أخذته إلى المدينة.. وربما هي مجرد عذر لزيارة داندي.. قد يكون تارغت معذوراً إن توتر بسبب تغيّر مشاعره خاصة وهو يركز على أمر آخر.

استمرت الحرارة الشديدة بضعة أيام، للمرة الأولى في حياتها تجد كايي الوقت يجر أقدامه بثقل.. سلمتها زوي مهمة التبضع اليومي، ولكنها لم تتخل عن أي عبء من الأعباء المنزلية. أحست كايي بالغضب وبعدم الحاجة إليها، فذهبت إلى المنزل القديم، حيث تكون وسائل عنايتها بالبيت غير معرضة للانتقاد. وبدافع العادة، بدأت تحج إلى الغرف في الأعلى والأسفل، قبل أن تخرج.. لكنه بدا لها منزلاً فارغاً فيه الفئران ساكنة وفيه العفن مستوطن.

كاد موسم الصيف ينتهي، ومن غير المحتمل أن يباع التيرز قبل الربيع.. سرها عدم ظهور المشتري الذي راعتها في البداية إشاعة وجوده.

وضعت المفتاح تحت الحجر، بعد إقفال الباب، فأحست بأنها ترتفع عن الأرض، وسمعت صوت هارڤي يقول:

ـ مرحباً! أكنت تطوفين حزينة في البيت القديم، ضائعة في ذكريات الحنين؟ فلنذهب ولنتظاهر بأننا لا زلنا طفلين.. لماذا لم تأتِ إلى جولي روجر؟

أنزلها مجدداً، فنظرت إلى وجهه الأسمر بفضول، متوقعة رؤية بعض

التغيير فيه، بسبب معرفتها بسره.. إن ذاك السر جعله أقرب إلى عاطفتها ولكنها أحست بغرابة مع أنه ينظر إليها بعين المحب، وشعرت بأنه بالنسبة لها ليس سوى أخ تشوشت عاطفتها بالنسبة له أول الأمر..

قالت له: «طلبت مني عدم الذهاب إلى هناك.. هل رأيت زوي؟».

ـ أجل.. تبدو الفتاة العجوز نشيطة كالجندب رغم هذه الحرارة الجهنمية.. وهذا ما لا أستطيع قوله عنك قطتي.. تبدين مرهقة.. هل اشتقت إليّ؟

ـ أصيبت زوي بنوبة قلبية في اليوم الذي كنت فيه عندها.. أكنت تعرف أنها تعاني من القلب منذ سنوات؟

ـ يا إلهي!.. لا! كانت تبدو دائماً قوية كالجواد!

ابتسمت كابي بحزن بسبب ذهوله.. كانت زوي تحمي سرها الصغير بحذر، كما حمت سرها الآخر، ولا يمكن لوم هارفي على جهله.

ـ حسناً.. يقول الطبيب أن لا داعي إلى الهلع. ولكنني ذعرت حتى الموت عندما عدت ذلك الصباح ووجدتها.. لقد تجادلت معها، أليس كذلك بشأن علبة الموسيقى؟

أشاح بصره عنها لبرهة، ثم ضحك قائلاً من غير اكتراث:

ـ آه.. ذلك الأمر! لقد انفعلت بطريقة مجنونة. أردت فقط استعارة العلبة.

لم تعرف لماذا تذكرت فجأة تلك النظرة على وجهه حينما قال تارغت إن العلبة ثمينة.

ـ كنت ستبيعها.. أليس كذلك؟

سرعان ما رسم لها تلك البسمة الساحرة التي خدمته كثيراً في الماضي.. وقال متبجحاً:

ـ وماذا لو فعلت؟ لن يفتقدها أحد في هذا الحطام الذي سيذهب مع المنزل.. ألم أدفع ثمن إصلاحها؟ إذن يحق لي أكثر من نصف ثمنها.

ـ تارغت دفع ثمن إصلاحها!

تلاشى بعض الشجاعة عن وجهه:

ـ صحيح؟ ما رأيك بهذا؟ وأنا الذي ظننت أن زوي هي الفاعلة.

أمسك بها من كتفيها بسأل بفظاظة وبصوت مشحون بالغضب:

ـ هل بدأت بالوقوع في حب خطيبك السابق؟ أعرف أنك تستمتعين بالتلاعب بنا، لكنني لن أتحمل أقل تلاعب، لذا، من الأفضل أن تتوقفي عن المزاح قبل فوات الأوان. قد أقدّر لعبك الصغيرة، إنما السيد كارسون ليس من الصنف الذي يتحمل التلاعب.

ـ حقاً؟ وكيف تعرف أنني لست نادمة على فسخ خطوبتي؟ في الواقع أعيد التفكير فيها جدياً. لقد عرض علي تارغت الزواج وهو أهم شرط في المعاشرة بين الرجل والمرأة.

فاجأها بعناق قاسٍ كاد يكسر ضلوعها وقال بفظاظة:

ـ حسناً جداً.. تكسبين.. فأنت الفتاة الوحيدة التي لم أستطع الحصول عليها بحسب شروطي، وبما أنك الفتاة الوحيدة التي أرغب فيها فليكن الزواج.. إنما لا تلوميني إذا انتهى بنا الأمر إلى الطلاق.

تمتمت لكسب الوقت: «طلب غير مغر وغير مرض للنفس».

رماها إلى الأرض بين الأزهار المتشابكة، والنبات الصعتري الجميل الرائحة الذي يغطي أرضية الشرفة.

قال: «يجب أن تغتري بنفسك لأنك تمكنت من جرّي إلى حيث أردت.. أنت فعلاً ظريفة ومختلفة عن الأخريات يا قطتي لذا لن أدع غيري يحصل عليك بسبب خاتم زواج.. اظهري بعض التقدير المحب لزوج المستقبل».

استلقت جامدة، مستسلمة بسلبية، وكان عقلها يرفض أية متعة في هذا الاستسلام.. ضغطت حرارة الجو عليها ولكنها فكرت في هذه اللحظة وتأثيرها فيها فيما لو وقعت في وقت آخر ومع حبيب آخر.

أعادها صوت هارفي المتوتر المحبط إلى واقعها:

ـ ماذا دهاك؟ ألا تريدين أن أغازلك بعدما سوينا المسألة؟

جلست مستوية ترفع شعرها الكثيف عن عنقها المبلل عرقاً. . قالت: «الطقس حار جداً. . آسفة هارڤي. . لكنك كنت محقاً طوال الوقت».

ـ محق بماذا؟

ـ بالنسبة للزواج، لن ينجح بيننا.

ـ لعنتي الله! هكذا أنتن النسوة! تتمسكن بالطهارة وترفضن العطاء قبل الزواج، ومن أجل العناد فقط، تقررن الاستغناء عنه. . فهل لي أن أستفسر عن السبب.

ردت بجفاء: «سألتني وشكرت لك هذا الشرف. . ولكن العطاء ما زال مرفوضاً».

لا شك أنها اكتسبت شيئاً من عادة تارغت بالتلاعب بالكلام، لأن هارڤي بدا حائراً.

قال: «إذن إلى ماذا تسعين؟ قلت لك إنني سأقبل الزواج».

ـ لكنني لم أقبل، عزيزي هارڤي. . كنت أحاول رفضك بأدب. هل لنا أن نعود؟ فوقت العشاء قد حان.

هبت على قدميها، تلتقط نثرات خضراء من شعرها، أما هو فقال بلهجة مجروحة، كادت تضحكها:

ـ أتعنين أنك ترفضينني؟

ـ مسكين هارڤي! أنت كصبي صغير قيل له إن من غير الضروري أن يكون حسن السلوك. . ستشعر بالراحة عندما تفكر في الأمر ملياً. . تعال. . أكاد أموت جوعاً. .

ـ إذن أنت تحاولين العودة إلى المأسوف عليه مرة أخرى بعد كل شيء. وليس هذا فحسب بل بدأت تستخدمين طريقته في الكلام. . حسناً. . لن أقبل بهذا. . أتفهمين؟ أنت لي. . طالما كنت لي، منذ كنت طفلة نحيلة، يسعدها أن ألاحظ مجرد وجودها. أتعتقدين أنك بعدما أصبحت فتاة جميلة جذابة أكثر من أي امرأة أخرى، أتركك تذهبين إلى شخص منبوذ تظنين أنك قادرة على حبه مرة أخرى؟

سألت بنفاد صبر:

ـ أوه. . حقاً هارڤي! هل يجب أن تتكلم بهذه الطريقة؟ ولكن خطيبي المنبوذ لا يميل إلي، لقد أظهر اهتمامه لي ليحطمك.

ـ هذا ما تظنينه، ولكنني لست غبياً، فكري مرتين إذا كنت ستلعبين معه اللعبة ذاتها.

تنهدت كابي، تفكر بالظروف. . ها هي تتحدث بالحقيقة المرة لأنها لم تعد تهمها. . وفي الوقت نفسه لم تعد الحقيقة تعني لها سوى كلام سخيف. . فالمرء في النهاية لا يؤمن إلا بما يريد.

قالت بسخط: «حسناً هارڤي. . فليكن ما تشاء. . إنما لا تستمر في مماطلتي برفضك القبول بلا كرد عليك. . ألا تفهم. . لقد بنينا أشياء خاطئة، أو على الأقل بنيت أنا ذلك، فذلك الادعاء الخيالي الذي مارسناه في طفولتنا: التينرز، الخطط المجنونة، الأمنيات والوعود الرزينة، أكل عليه الدهر وشرب».

ـ وهل التقط خطيبك السابق، الذكي المنظم الفقاقيع لك؟

ـ أجل. .

وتعجبت كيف أن هارڤي استخدم تعبير تارغت نفسه.

من بعيد، فوق البحر بدأ الرعد يقصف منذراً بقدوم عاصفة. رفعت بصرها إلى السماء المكفهرة، وفي الوقت نفسه لمحت شيئاً غير مألوف على باب الكوخ. . فصاحت:

ـ انظر هارڤي، هناك شيء ما معلق على لوحة الإعلان.

ـ فلنذهب لنراه.

ركضت متخطية باب منزل زوي إلى الحديقة، وهناك وقفت مسمرة تنظر إلى اللوحة البشعة التي أصبحت مألوفة لديها. أخذت عيناها تتسعان وتتسعان وهي لا تصدق. . وفي لحظات قصيرات عادت طفلة من جديد، ما زالت مملكتها المسروقة غير مكشوفة للعالم الخارجي.

كتب أحدهم بخط واضح عريض، كلمة واحدة. . «مباع».

٩ ـ لكل حلم نهاية

نظر هارڤي من فوق كتفها، وصاح متعجباً:

ـ ما رأيك بهذا؟ لم أظن أن أي إنسان قد يرغب في هذا المكان القديم؟ أظننت أنت؟

ارتدت كايي عن اللوحة، ونظرت إلى المنزل الشامخ عالياً حيث كانت منذ لحظات.. ولكن لحظة الصدمة مرّت، ومرّ معها آخر متطلبات الخيال الغبي.

قالت: «من الأفضل أن نعود فقد تكون زوي منزعجة لأنه بيع».

ولكن زوي لم تكن غير مهتمة فحسب بل منزعجة من كايي التي كانت دموعها تتساقط. قالت لها بشيء من الحدة، قبل أن تتفوه كايي بأية كلمة:

ـ لا داعي للبكاء على حليب مسكوب.. أنت امرأة ناضجة الآن لذا آن لك أن تتحرري من خيالات الطفولة.

ـ لست منزعجة بسبب أحلامي الطفولية بل بسببك أنت.. فماذا سيحل بك؟

ـ حسناً.. عليَّ الآن الانتظار حتى نرى من سيأتي إلى هنا عزيزتي. ربما لن يحتاجوا إلى الكوخ بل ربما سيأجرونه. إنما إن اضطررت للرحيل فسأرحل.. هل ستبقى هارڤي لتناول العشاء؟

كان يعبث بتمثالي الكلاب الخرافية على رف المدفأة والانزعاج باد

عليه.

قالت كايي بلطف: «ألم يكن هناك كوخ في مزرعة عمك هارڤي لا يعيش فيه أحد؟»

ـ إنه زريبة أكثر منه كوخاً.. لكنني لا أدري إن كان المالك الجديد يريد تأجيره.

ـ ألا يمكنك أن تعرف؟

ـ بلى يمكنني، لا.. لن أبقى الليلة عزيزتي.. لا أظن أن كايي في مزاج رائق ولا أظنها تريد أن تبكي على كتفي، أليس كذلك قطتي؟ لا ريب أنك كبرت على هذا.

أحست للحظة بالدهشة، لقلة اكتراثه الظاهرة بما آلت إليه أمور القصر. ولكنها عادت ففكرت بأنه لا يشعر بالمسؤولية تجاه زوي بسبب جهله الحقيقة. في هذا الوقت نظرت زوي إليها نظرة غريبة.

قالت له بلطف: «أخشى ألا يحل البكاء على كتفك شيئاً. زوي على حق، ما يجب أن يكون سيكون.. إذن، أين الفائدة في البكاء؟»

لكنها كانت تعلم، وهي تتكلم، أنه لو قُدِمت إليها الكتف المناسبة لاستراحت من شكوك وخيبات أمل كثيرة.. وجدت زوي من المناسب التعليق على أفكارها:

ـ كان صديقك الرجل المحترم هنا.

التفتت كايي لتسأل بلهفة:

ـ تارغت؟ هل عاد؟ متى جاء؟ ماذا قال؟

ـ مر منذ لحظات وهو عائد من لندن، ليسأل عن صحتي ثم ذهب إلى المنزل يبحث عنك ولكنه عاد مسرعاً قائلاً إنه لن ينتظر.

عضت كايي شفتها: «آه».

تذكرت أنها سمعت صوت سيارة تقترب، فهل دنا تارغت من شرفة القصر فلمّا رآها مع هارڤي رجع بدون أن يلقي التحية؟ ولكن، لماذا لم ينتظر؟ تساءلت عما إذا كان قد رأى الإعلان على اللوحة، فقالت زوي:

ـ نعم شاهده. لم يقل إلا أن من الجيد أن يباع القصر قبل حلول الشتاء.. وهذا منطقي.

ـ أجل.. أعتقد هذا. لكن ألا تعتقدين أن من اللائق لو توقف ليعرف ما ستكون عليه ردة فعلي؟

ـ أوه يا عزيزتي.. ولماذا يتوقف؟ فهل المنزل منزلك.. كان متعباً بعد رحلته، ويرغب في الاستحمام.

قالت كابي بشيء من الغباء:

ـ كان بإمكانك عرض حمامنا عليه، فاليوم هو الجمعة.

صفعها هارڤي على ظهرها بغضب:

ـ أنت تفتعلين الضجيج بدون داع على المأسوف عليه يا قطتي.. تعالي رافقيني إلى السيارة.. هناك مسألة صغيرة لم تتضح بيننا.

سألت: «صحيح؟ لكنني أعطيتك ردي».

ـ وهو رد لم أقبله.. تعالي.

تصاعدت دورة أخرى من أصوات الرعد، وبدأ المطبخ يظلم.. فقالت كابي:

ـ لا.. من الأفضل أن تخرج بسرعة قبل بدء العاصفة.

حملها فجأة عن الأرض واتجه بها إلى الباب.

ـ كنت تحبين دائماً إثارة العنف في نفسي، أليس كذلك؟ لدي رغبة في حملك معي، وإبقائك في المقهى طوال الأمسية عقوبة لك.

قالت زوي بلهجة المربية الآمرة:

ـ لا تتصرف كالمجنون.. أو كشخص يمثل أحد الأدوار في السينما التي تهوى الحديث عنها.. ضع الشابة الصغيرة من يدك.

رماها هارڤي من يده بفظاظة، وترك الكوخ صافقاً الباب وراءه بقوة.. فقالت زوي:

ـ ما كان عليك أن تمازحيه حبيبتي.. إنه ولد شرير.. ما زال يحب لعبة الشرطة واللصوص.

أشعلت النور لأنها لم تعد ترى ما ستحضر للعشاء بسبب الظلمة القادمة بسرعة.. فاحتجت كابي:

ـ لم أكن أمازحه.. اعلمي أنه طلب مني الزواج ولكنني رفضته.. لم يكن هناك فائدة من مواصلة الجدال في الخارج.

ردت زوي: «عظيم، أتعرفين أنك تظهرين بعض التعقل أخيراً؟»

كانت تقشر التفاح للفطيرة. راقبت كابي القشرة الممتدة في حلقات متصلة تحت أصابعها المرتبة.

قالت لها: «لا أستطيع تقشير التفاح كما تقشرينه أنت. ألست دهشة زوي؟»

ـ دهشة لأن هارڤي يريد ما لا يستطيع الحصول عليه؟ لا عزيزتي.. فما كنت ستحصلين على شيء منه لولا السيد تارغت.

ابتسمت كابي فالحصول على شيء منه كان تعبيراً أنيقاً من زوي، وينطبق بكل تأكيد على تارغت أكثر منه على هارڤي.

قالت: «لا.. أعتقد هذا.. هل كنت ستسعدين لو تزوجت هارڤي زوي؟ خاصة وأن لك اهتماماً خاصاً به؟»

نظرت إليها زوي تخيء عينيها من النور، وقالت ببساطة:

ـ لأنه ابني؟ لا حبيبتي، لأنه ليس الرجل المناسب لك.. أنت بحاجة إلى أكثر من فتى قذر الرأس ليريحك.. أعتقد أنك تعرفين ذلك الآن.

تنهدت كابي وقالت:

ـ أجل.. أعرف هذا الآن.. عرفته بشكل أكيد عندما كنت معه على الشرفة.. عزيزتي زوي.. أنت حكيمة.. ماذا حدث لوالد هارڤي؟

ـ كان أحد الفنانين المارين هنا في الصيف. كنت أعرف أنه رجل عابث، ولكن عندما يأتي فتى ساحر يفتنك بكلامه المعسول وبحبه المخادع، تعجز المرأة عن المقاومة أو التفكير في المستقبل.. كنت قد تجاوزت الثلاثين، وقلبي لم يضطرب حتى ذلك الوقت، مع أنني حصلت على فرص كثيرة. لقد خفت عليك عزيزتي عندما عدت لأن هارڤي لم يعد

يلعب لعبة الخيال في المنزل القديم.

ـ أتقصدين أنه كان يصطحب الفتيات معه إلى هناك؟

تحرك أنفها إلى الوراء باشمئزاز.. لم تكن يوماً تجهل مغامرات هارڤي الغرامية لأنه طالما تفاخر بها.. ولكن، لم يخطر ببالها أن يستخدم مملكتهما الخاصة، لعلاقات صغيرة قذرة.

قالت زوي بلهجة رتيبة، وهي تقطع الفاكهة:

ـ حسناً.. ظل المنزل فارغاً مدة سنوات طويلة وكان بعيداً عن العيون الفضولية، لذا بات دعوة مغرية للأحبة الخائفين من الشائعات، ومن فضح أمرهم، آنستي الشابة.. لا أعتقد أن هارڤي كان الوحيد الذي استغله بحرية.. فأنا لا أتمكن من مراقبته ليل نهار.

ـ إن ذاك التصرف لبغيض، إن لتيترز ميزات رفيعة.. فكيف يتصرفون فيه وكأنه فندق رخيص؟

رفرفت عينيها عند أول وميض للبرق الذي أضاء الغرفة.. كان البرق بمثابة آخر ركلة لأحلامها المحتضرة.. أحست بالسعادة لأن شخصاً ما قد اشترى المكان القديم ليعيد إليه وقاره.

بدأت تخرج الآنية الخزفية من الخزانة وتضع أدوات الطعام لتختار زوي منها ما تريده. كانت تشعر بالتوتر وعدم الراحة وقد عزت السبب إلى العاصفة القادمة. ولأنها لم تكن معتادة على إظهار مثل هذا الضعف الأنثوي، أحست بحاجة ملحة وغير متوقعة إلى رؤية تارغت.

قالت وهي تحاول أن تبدو عادية:

ـ أظنني ذاهبة لأكلم تارغت قبل موعد العشاء.

ـ لو كنت مكانك لما خرجت في مثل هذه الليلة يا حبيبتي.

ـ لماذا لا؟ ليست الغلطة غلطتي لأنني لم أره عندما زارنا.

ـ مع ذلك انتظري حتى الغد.. فلن ترغبي في التعرض للعاصفة وأنت بسيارتك الصغيرة.

ـ لا تهمني العواصف إذ لا يبعد المكان إذا سلكت الطريق المختصرة

أكثر من عشر دقائق.

ـ الطريق المختصرة تمر بين المستنقعات، وهي خطرة في طقس كهذا.

ـ حسناً، سأسلك الطريق الطويلة. ما الذي يشغل بالك زوي؟ لست ممن يثير الضجة عادة.

رفعت زوي نظرها إليها ورمقتها بنظرتها الحادة:

ـ حسناً آنستي الشابة، كان من الأفضل أن تنتظري دعوة منه، ولكن ما دمت ذاهبة فانطلقي الآن قبل بدء العاصفة.

ركضت كايي إلى غرفتها لتحضر معطفها. كانت حائرة من تردد زوي الغريب في السماح لها بالذهاب.. ولكنها بحاجة إلى تارغت فهو الحضن الذي تحتاج إليه بيأس.. وهي لا تريد فقط مناقشة ما يمكن فعله لزوي في حال خروجها من الكوخ، بل تريد أيضاً أن تزف له خبر طلب هارڤي الزواج بها، واكتشافها بأنها أصبحت لا تريده. ثم ستقول له إن عليه التوقف عن ادّعاء الاهتمام بها فالسبب الذي جعله يقدم على ذلك مضى وانتهى ولكنها لن ترفض أبداً أن يبدي اهتماماً حقيقياً بها. تعتقد كايي أنه في هذا الوقت سيكون على وشك الذهاب إلى مطعم الفندق وهذا يعني أنه سيدعوها للانضمام إليه حالما يراها. وإن حدث ذلك فستجلس لتبدي اهتمامها بأخبار زيارته إلى لندن، وستلمح إليه بذكاء كم اشتاقت إليه.. غيرت ملابسها بسرعة ثم ارتدت الفستان الذي يفضله، وأصلحت ماكياجها، وركضت إلى سقيفة العربات، تدعو الله ألا ترفض الموريس السير.

سلكت الطريق الطويلة بناء على نصيحة زوي. ولكن كما حدث في مناسبات عدة باءت توقعاتها المسبقة بالفشل، فبعد استدعاء تارغت من مطعم الفندق الذي كان دخله منذ قليل، لم يستطع إلا أن يدعوها للانضمام إليه. ولكن تهذيبه المفرط أدهشها، فشعرت بأنها تطفلت بطريقة غير لبقة. تقدم السقاة يحضرون لها المكان، ويضعون زهوراً جديدة على

الطاولة. ثم تلقوا من تارغت أمراً بتأخير الطبق التالي حتى تنهي السيدة طبقها الأول.. غير أن ما رأته من جفاء من قبله جعلها تفقد شهوتها إلى الطعام. وحاولت أن تسليه بهذر متواصل، ومع أنه استجاب له بما يناسب، إلا أنه بدا لها غريباً متباعداً كما عهدته في البداية فكان أن لاذت أخيراً بالصمت.

ثم قال: «أعتقد أنك جئت لتبدي لي ما في قلبك إزاء بيع التينرز.. هل صدمك الخبر؟»

نظرت إليه قلقة، وردت بحدة:

ـ بالطبع صدمني، ولكنني لم آت إليك لأبكي على صدرك.

رفع حاجبيه متسائلاً: «إذن، لماذا جئت؟»

ـ لم آتِ بغية البكاء.. إذا كان هذا ما تظنه.

رد عليها بطريقة فظة:

ـ يا له من خبر جيد، لأنني غير مستعد للتعاطف مع حزن خيالي طفولي..

ردت بحدة: «لم يطلب منك أحد الشفقة.. لكنني أعتقد أنك قادر على تقديم شفقتك إلى زوي؟»

ـ زوي؟ آه.. لا أظنها قلقة إلى هذه الدرجة، وكما سبق أن قلت لك إنه في حال إخلاء المنزل سنؤمن لها منزلاً.

ـ إخلاء؟ تتكلم وكأن الإخلاء لا يعني شيئاً! الكوخ هو منزلها.. البيت الذي جعلته بيتها مدة ثلاثين عاماً.. هل تحب إخلاء منزلك؟

ـ ليس لي منزل بل مجرد شقة رجل أعزب لا ذكريات بعيدة لي فيها. لذا لا أدري.. اسكبي المزيد من هذه الصلصة الرائعة.. لا؟ ما عادت شهيتك كما كانت. أرجو ألا تكوني مشتاقة إلى من يسقمك.

اتسعت عيناها واشتد اخضرارهما ثم ومض فيهما بريق الشك فهي تتوق إلى الاعتراف بأنها تخشى أن تكون مشتاقة إلى الحب ولكنها تشعر فعلاً بأنها سقيمة. عندما نطق بالملاحظة التالية حرمها من الرغبة في شرح

ما يدور في رأسها.. فقد قال بعذوبة:

ـ من الحب، ربما..؟ فهمت أنك وبورتلاند الشاب قد حللتما شؤون قلبيكما، فما حدث بعد الظهر بينكما أدل مثال.

ـ حسناً، إذن لقد استرقت النظر إلينا! إنما لماذا يزعجك هذا ما دمت مصراً على دفعي إلى ذراعيه؟

كان غضبها يتصاعد، ومع أنها ظنت أنها لمحت وميض غضب في عينيه، فقد أجابها بهدوئه المعتاد:

ـ عزيزتي كايي. لست منزعجاً أبداً لأنك تمكنت من تحقيق ما تريدين.. أما بالنسبة لاستراقي النظر فأؤكد لك أنني انسحبت حالما رأيتكما، وهذا أفضل بكثير مما فعلته أنت عندما استرقت السمع.. أعتقد أنك توافقين على تناول القهوة في الصالون.. إن منظر البرق فوق البحر مؤثر من هناك.. أتخافين العواصف؟

ـ أبداً.

خرجت من المطعم وهي تحرك شعرها الأحمر الطويل بتحد وكانت قد قررت أن تترك تارغت حالما تنهي قهوتها..

قال لها وهو يستريح في مقعد وثير:

ـ لا.. بالطبع لا تخافين العواصف.. فأنت جسورة أمام المتفجرات الطبيعية وغير الطبيعية.

توقف قليلاً ثم سألها: «هل حققت ما تريدين؟»

ـ إذا كنت تسأل ما إذا كان هارفي قد استجاب للمنافسة المزعومة، فالجواب نعم.

ـ إذن، لا شك أن ذلك أرضاك كثيراً.. هل تسمحين بسكب بعض القهوة في فنجاني؟

ـ أجل.. لقد أرضاني.

ـ وأنت بالطبع، رددت عليه الرد المناسب؟

ردت ببرود: «طبعاً».

لكنها ارتاعت لأنها سكبت القهوة في الصحن، وهذا دليل أخرق على يد غير مستقرة.. بما أنه صاغ سؤاله بهذه الطريقة، فالرد كان كما فعلت، لأنها لن ترضي إحساسه بالتفوق بالقول له إن ردها كان لا.

قال بلهجة الراضي عن نفسه: «إذن، لقد حققت ما تريدين».

هذا ما دفعها أخيراً إلى أن تكون فظة، فصاحت به:

ـ أنت شخص مغرور، لا يطاق. أظنني ذاهبة، إذا كنت لا تمانع.. أنا آسفة على تطفلي عليك في مثل هذا الوقت غير الملائم.. لقد حذرتني زوي!

بدأ غضبها يبرز في دوامة من الأسى فهي غاضبة منه لأنه صدق ما يريد مما رآه على الشرفة.

كانت في منتصف الطريق إلى الغرفة عندما انفجرت العاصفة بشكل مفاجىء، جعل كريستال الثريات تتأرجح مرتجفة مجلجلة، وكأنها ستتحطم.. أحست بيدي تارغت على كتفيها وفي اللحظة ذاتها، انطفأت كل الأنوار.

قال من فوق رأسها: «لن تخرجي في هذه العاصفة أيتها الطفلة السخيفة.. لن تسامحني زوي أبداً إن تركتك».

ـ ولماذا تهتم؟

ـ لن أسامح نفسي أيضاً على هذا وعلى أشياء أخرى.

محى قصف الرعد كلماته الأخيرة. شعرت بالراحة بين يديه خاصة وهي تسند رأسها إلى صدره في الظلام. ظنت أنها شعرت بشفتيه تلامسان شعرها.. ولكنها بسبب صراخ السيدات ولعنات الرجال حولهما لم تستطع التأكد. قادها تارغت وذراعه حولها إلى نافذة لينظر إلى الخارج.. فكان أن تحقق ما تخيلته عندما كانت قادمة بالسيارة إلى القصر.. في هذه اللحظات نسيت كل ما حدث لها اليوم.

كان المطر ما يزال منهمراً بقوة عندما غادرت الفندق بعد ساعة. أوصلها تارغت ليتأكد بنفسه من سلامة مساحات الموريس وأنوارها. ثم

رجاها كما رجتها زوي أن تسلك الطريق المرتفع.. وأن تغيّر سرعة سيارتها وهي تنزل طريق التل.. فقالت وهي تنظر إليه من النافذة المفتوح نصفها:

ـ تبدو قلقاً تقريباً تارغت.. فهل ستتزعج إن وجدوني مشوهة فاقدة الوعي في فندق على الطريق؟

رد وهو يقف تحت المطر:

ـ أذكر أنك سألتني هذا قبل اختطافك سيارتي وفرارك بها، في الرحلة التي سببت لنا جميعاً الكثير من المتاعب.. سأنزعج كثيراً لأن دمي ليس مليئاً بالغبار والفئران كما سبق أن قلت.. ولا داندي كذلك.. هذا ما ستحكمين عليه بنفسك لأنها قادمة إلى هنا في نهاية الأسبوع القادم. أرجو أن تتقابلا.. تصبحين على خير.. قودي بحذر.

دام انفجار العاصفة أياماً قاومت خلالها كابي عوامل الطبيعة إضافة إلى معنوياتها المنحطة. ربما خسرت قلبها وحس الانسجام ولكنها صغيرة لذا ستتغلب على حبها لتارغت مع الوقت..

ولكن حين التقيا فجأة على الشاطىء في يوم من الأيام تخلت عنها فلسفتها التي اكتسبتها في الأيام الأخيرة.

كانت ملتزمة جانب الصخور لاتقاء الريح، وكان هو يفعل الشيء نفسه.. وكانا معاً مطأطئي الرأس لذا لم يريا بعضهما بعضاً. ولكن عندما فتح ذراعيه ليمنع اصطدامها به وسقوطها، كان الوقت قد تأخر على تجنبه واضطرت إلى التمسك بكتفيه لئلا تقع.

قالت وهي تحس بوجنتيها تتوردان بسبب عادتها في الاصطدام بالناس.

ـ أوه!

قال: «يبدو أننا الوحيدان اللذين تحديا الطقس.. ألست خائفة أن تطيح الريح بك؟ لا.. بالطبع.. أذكر أنك لا تخافين شيئاً، لا العواصف ولا أية نكبة قد تظهر».

كانت عيناه تبرقان تحت حافة قبعة فلين قديمة مشدودة فوق جبهته تناقض تماماً صوته الجاد. لكنها أحست للمرة الأولى بأنها تقاومه كما تقاوم الريح، وأنها كانت دائماً تقاومه بدون أن تفهم السبب.. أما الآن، فعرفت أنها تقاوم نفسها.

سألته: «لماذا تهاجمني دائماً؟»

بدت الكآبة في عينيه، ثم رد رداً غريباً:

ـ لأنه رد الفعل الوحيد الذي تفهمينه. كنت في مرحلة الدراسة الإعدادية عندما دخلت بكل خفة إلى خطوبة لا تعني لك شيئاً.

ـ حسناً، ولكنها لم تكن تعني لك شيئاً أيضاً.. فماذا في هذا؟

في هذه المرة فَقَدَ الرد بالمثل شيئاً من حدته العادية، وتغضن جبينه:

ـ وماذا في هذا.. هل زوي بخير؟ ألم تزعجها العاصفة؟

ـ زوي بخير.. مع أنني أتمنى لو أعرف شيئاً محدداً عن مصير الكوخ قبل أن أسافر. سيقلقني جداً الإحساس بأنها قد تطرد منه.

ـ أوه.. وهل تفكرين في الرحيل؟

ابتعدت عنه قليلاً:

ـ حسناً.. لا أستطيع البقاء حتى ما لا نهاية فالصيف يوشك أن يولي تقريباً، والعمة ستفقد صبرها.. من الغريب أنها لم تطلب مني العودة في مثل هذا الوقت فليس من عادة العمة التسامح في العطلات إذا كانت بحاجة لمساعدة في البوتيك.

ردَّ: «ربما يناسبها غيابك، أو ربما تأمل أن تعودي بزوج محتمل يأخذك عن عاتقها».

بدا لها كلامه غير لطيف ولكن الاندفاع للرد هجرها فوقفت وقد بدا وجهها الصغير فجأة محروماً عاجزاً..

ارتفع حاجباه: «ماذا.. لا جواب؟ أصبيت عمتك بالطبع بخيبة أمل مريرة عندما رفضت زواجاً دبرته أنت في الأساس. ولكنني فهمت أنها مستعدة للقبول بأول شاب تقدمينه لها صهراً مهما كانت حالته المالية».

كانت تلهي نفسها برسم دوائر في الرمل بطرف أصبع قدمها، لذا لم تر تعابير وجهه التي تغيرت خاصة بعدما فشلت مجدداً بالرد على هذا التحدي الظاهر.. فقال بلطف هامس:

ـ أظنك بدأت تكبرين أخيراً.

أدركت أنها لو توقفت هنا أطول من ذلك لتصارع نفسها لكشفت عما تخبئه عنه من مشاعر.

ـ حسناً.. من الأفضل أن أعود الآن.. وإلا تأخرت على العشاء. أراك فيما بعد تارغت.

ـ رويدك دقيقة! هل تتعشين معي مساء الأحد أنت وفتاك؟ تذكرين أنني دعوت ضيفة في نهاية الأسبوع.

نعم تذكر جيداً، أجابت وهي تحاول أن تكون غير مبالية:

ـ أتريدني أن آتي مع هارفي؟

ـ ستكون السهرة جميلة إذا كنا جماعة.. والآن بعدما عرفت أنك وفتاك مخطوبان أجد من الطبيعي أن أشمله بدعوتي.

بدأت تحتج: «لم..»

ثم تذكرت أنها بدافع الكبرياء حاولت تضليله ليلة العاصفة.. فغيرت كلامها بسرعة، وكبحت الرفض السريع الذي حاولت أن تقوله:

ـ أنا لا أعرف أبداً متى يكون هارفي حراً.

فكرت أنها لن تترك له الرضى في دفعها إلى التنازل عن اهتمامها بضيفة نهاية الأسبوع.. فرغم كراهيتها لتلك المرأة، داندي، فهي ما تزال فضولية لتعرف أي صنف من النساء هي تلك التي تمكنت من تحريك مشاعره. أضافت، في محاولة شجاعة لتبدو مهذبة:

ـ إذا استطاع أن يحصل على وقت راحة، فأنا واثقة أنه سيكون مسروراً.

ـ عظيم.. في السابعة والنصف إذن.. لا ترتدي شيئاً رسمياً.

شد قبعته إلى الأسفل أكثر، واستدار يواجه الريح.

ما إن حلت نهاية عطلة الأسبوع حتى انخفض المدّ، وخرجت المراكب لتبحر في الخليج ثانية، وعاد السابحون إلى الشاطىء.. ولكن العاصفة كانت علامة فارقة لنهاية الصيف، فرغم شروق الشمس ساطعة، كان هناك لسعة برد في الجو.

وصل هارڤي وكابي مساء الأحد إلى القصر. أحست كابي أن هارڤي كتارغت يعتبر الدعوة تقديراً لعلاقتهما القادمة. تمنت لو لم تأتِ.. وتمنت هذا أكثر عندما وقف تارغت عن مقعد منخفض ليحييها ويقدم لهما ضيفته.

كانت داندي كما توقعتها كابي مثالاً للجمال ومثالاً للتربية الراقية ولكنها لم تتوقع أن يكون جمالها خالياً من أية شائبة.. لا عجب إذن أن يخضع تارغت أمام هذه الفتنة التي تناسب ذوقه الصعب.. ولكن مع مضي الوقت اتضح لكابي من خلال مشاركة داندي المؤدبة والتافهة في الحديث، أنها إما تعتمد على جمالها ليربحها من أي جهد للمشاركة الفعلية وإما أنها غبية.. وكان من المستحيل أن تعرف من خلال تصرفاتها، ما إذا كانت راحتها مع تارغت قد تعني شيئاً أكثر من رفع كلفة بين صديقين قديمين، أم أن عنايته المهذبة بها كانت أعمق من إعجاب عادي بامرأة كان يحبها يوماً.. ولكن كابي لاحظت أنه لم يمازح داندي أو يحاول إغراءها، بل كان يعاملها كشخص راشد.

كان هارڤي بالطبع يمثل كعادته فقد وجد في الضيفة مستمعة ترضي غروره، كانت داندي قد فتحت عينيها الزرقاوين المضيئتين أمام قصصه المنسوجة جيداً، وكانت بين الحين والآخر تقول بدهشة: «حقاً.. و.. ما أبرعك!». في إحدى اللحظات ظنت كابي أنها رأت ومضاً غريباً من التسلية في عيني تارغت.. في مرة من المرات لم تستطع مقاومة رفس ساق هارڤي من تحت الطاولة وذلك عندما بالغ في تبجحه.. ولكن داندي تابعت النظر متأثرة بطريقة فارغة، وقالت لكابي إن من الإثارة أن تكون صديقة لشخص يعرف أشخاصاً مثيرين مثله. اكتشفت أن من المستحيل أن

يكره المرء داندي التي وإن كانت غبية ومملة، تخلو من أي لؤم. لا ريب في أنها تعرف بأمر علاقتها القديمة مع تارغت ومع ذلك تبدو ودودة غير مضطربة، إلا إذا كانت سعيدة وراضية لمعرفتها بأنها استعادته منها بحيث أصبح لا مكان للغيرة.

قال تارغت يقاطع أحد رواياته المسرحية:

ـ أنت لا تأكلين شيئاً كابي.. إنها المرة الثانية التي أعلق فيها على فقدان شهوتك إلى الطعام.. فهل أنت..

عبست في وجهه تتحداه أن يضيف كلمة أخرى، ولكن هارڤي أجابه:

ـ ربما السبب هو الحب.. هل استسلمت أخيراً إلى عوارضه المألوفة يا قطتي؟ يجب أن نغذيك، أليس كذلك؟

ابتسم لها بسحر، يوضح للآخرين حقه بدلائل هذا الحب. وكانت كابي على وشك الرد برد لا ينم عن أدب، عندما وضعت داندي شوكتها، متخلية عن الحلوى التي تتناولها، وقالت، متأسفة أن للحب تأثيراً معاكساً عليها. «أنا مضطرة إلى مراقبة جسدي لأنني غير محظوظة كالآنسة جوردون.. لقد شجعت خططي الليلة تارغت، وهذا لؤم منك ولكن الطعام هنا رائع. ولا أراني أملك قوة الإرادة في الوقت الراهن.. سيكون من المؤسف أن أضطر لتوسيع ثوب عرسي مجدداً.. أليس كذلك؟»

نظرت كابي إلى تارغت نظرة سريّة فوجدته يبتسم بكسل ولكن هارڤي قال بلهفة:

ـ ثوب عرس؟ أتعنين..؟ لا يمكن أن تعني..؟

كان يمكن أن تكون الدهشة عارضة ولكن هذه الدهشة هي ما جعلت رأس داندي يصبح كالبيضة، ولكنها بيضة فارغة، لا شيء بداخلها أبداً..

قالت داندي وهي تتبادل مع تارغت ابتسامة صغيرة:

ـ أجل.. سأتزوج بعد وقت قصير.

كان هارڤي يبدي الأسى الحزين مرفقاً بالتهنئة.. أما عينا كابي فتحولتا متجاوزتين تارغت، إلى يد داندي. كانت تتوقع رؤية الخاتم الذي

كان لها، محيطاً بإصبعها وعندما لم تجد الخاتم ذاته توقعت أن يكون تارغت قد طلب لها خاتماً جديداً.

قال تارغت وهو يدفع كرسيه إلى الوراء:

ـ هل نتناول القهوة في الصالون؟

سرعان ما تذكرت ليلة العاصفة عندما أنهيا تبادلاً مربكاً للحديث بالحركة ذاتها والطلب نفسه.

تركت داندي تسبقها إلى خارج الغرفة كونها ضيفة الأمسية الرئيسية ولاحظت برضى وهي تلحق بها، أن عليها بالفعل أن تراقب وزنها.. لكنها كانت رغبة عابرة إلى إيجاد خلل في جمالها الكامل. تذكرت وهي تراقب داندي توزع القهوة برشاقة واطمئنان أنها كانت هي نفسها تتعامل بشكل أخرق مع الواجب الاجتماعي ذاته.

قالت كايي، ما إن شعرت بأن من المناسب إنهاء الأمسية:

ـ أظن أن علينا أن نذهب.

بدا هارفي متردداً ولكن تارغت مع ذلك لم يحاول منعها.. ودعت داندي بأدب وتمنت لها السعادة.

رافقهما تارغت حتى الباب الأمامي، وهناك وقفت إلى جانبه فيما كان هارفي يحمّي محرك السيارة.. لاحظت بحزن أولى أوراق الخريف المتساقطة، ونظرة الحرمان على آخر بقايا الدعوات الريفية.

قالت: «لقد ولى الصيف تقريباً.. لقد غيرت العاصفة الريف بسرعة».

ـ هذه عادات العواصف، إما أن تنقي الجو، أو تسرّع مرحلة الاحتضار.

ـ الاحتضار؟

ـ أجل.. فكلنا سنودع هذه المنطقة الرائعة قريباً. فالإجازات تنتهي عادة قبل أن نتوقع.. أليس كذلك؟

ـ أجل.. أظن هذا.. حسناً.. شكراً لك تارغت على هذه الأمسية

الرائعة.. داندي إنسانة خلاّبة الجمال.

لو كانا على أساس الاتفاق القديم لأضافت: لكنها غبية ومملة وبليدة الحس كماء الخندق الراكدة، ولأضافت أيضاً: «ماذا ستشعر عندما يولي سحر الجمال؟»

ظنت أنها رأت وميضاً خفيفاً في عينيه وهو يودعها، وكأنه يعي تماماً أفكارها التي لم تبح بها.. ولكن هارفي كان يستدعيها بنفاد صبر. رفع تارغت يده مودعاً إياهما بطريقة عفوية ثم عاد مسرعاً إلى الداخل.

قال هارفي وهما يعودان إلى سانت كوباي:

ـ من كان يظن أن المأسوف عليه يخبىء مثل هذه المفاجأة؟

ـ إنها بيضة جميلة.. رائعة المظهر ولكنها غبية.. مجرد بيضة جميلة.

ـ ومن يهتم إذا كانت غبية ما دامت جميلة كمليون دولار.

وضحك.. فقالت:

ـ سيهتم تارغت كثيراً إن اضطر لقضاء بقية حياته معها.

ـ ومن يهتم بالسيد تارغت كارسون؟

ـ أنا أهتم.

ـ إذن، من الأفضل أن تغيري فكرتك.. ربما أحببت بعض الشيء ذلك الرجل أثناء لعبة التنافس التي قمتما بها لحثي على ما لا أريد من رباط. ولكنك ما زلت قطتي. لا تنسي هذا!

ـ لست ملكك! أما الرد على مطلبك فتعرفه أنت.

ـ لم يكن ردك شيئاً يذكر في حسابي.

أوقف السيارة أمام باب الكوخ.. عندما لفّ ذراعه حولها، تساءلت عما إذا كانت تقطع أنفها نكاية بوجهها، برفضها ما كان يبدو يوماً مهماً جداً لها. أليس من الحكمة القبول بالدواء المسكن، بدلاً من البكاء على ما هو بعيد عن منالها؟ من فوق كتف هارفي لمحت لوحة وكيل العقارات

تطالب بنهاية الحلم الغبي فعرفت بسرعة أن الحلم لم ينتهِ.. عرفت أن الحب شيء يتألف من عدة وقائع. لقد أحبت هارفي وما زالت تحبه بطريقة ما ولكنها لا تظن أنها متعلقة به جداً.. والتعلق هو أحد وقائع الحب الثابتة..

استجابت لا إرادياً إلى عناقه قبل أن تسحب نفسها، فأدار وجهه لها ليرى إلى ماذا تحدق. قال وهو مقتنع أنه وجد الرد، وأن كل ما هي بحاجة إليه هو بعض الخيال القديم ليهيجها:

ـ مسكينة يا قطتي.. إنه ذلك الإعلان اللعين الذي أزعجك جداً.. ربما تسير مملكتنا القديمة إلى الزوال، ولكننا سنخترع مملكة أخرى.. سأقول لك ماذا سنفعل.. سنتقابل هناك غداً لنودع المكان القديم ثم هناك أتوقع منك رداً على طلبي.

قالت بفظاظة: «عرفت ردي. لا أشعر بالتكدر بسبب البيع إلا من أجل زوي.. هل تساعدها إذا خرجت من بيتها؟ بالمال وما إلى ذلك، إذا كان الأمر ضرورياً هارفي؟»

ـ طبعاً.. لا تغيري الآن دفّة الحديث إلى أشياء أخرى. هل نلتقي غداً في التينرز؟

ردت بدون اكتراث، لأن من الأفضل إرضائه على مجادلته:

ـ إذا شئت.

أحست فجأة بالتعب الشديد، فقال وهو يميل فوقها ليفتح لها الباب:

ـ حسناً. قد أفاجئك بأخبار جيدة تحسم الأمور بيننا. لقد عملت جاهداً على حمراء الشعر الشابة، التي هي إحدى الزبائن المنتظمين في الحانة، ويبدو أن الأمر سيثمر خيراً.

ـ تلك اللعوب الصغيرة الساكنة على الطريق التي تحب الهرب من زوجها العجوز الممل؟

ـ هي نفسها يا حلوتي.. لكن زوجها العجوز منتج أفلام، أظن أن هناك عقداً على الطريق.. أراك فيما بعد.

استيقظت كابي على المطر والضباب، فانسجم الجو مع روحها المعنوية الكئيبة. لم يمنحها علمها بأن داندي عائدة إلى لندن هذا الصباح الكثير من السلوى، فهي عائدة معتدة بنفسها منتظرة يوم عرسها. أما تارغت فسيأتي قريباً ليودعها، قائلاً على الأرجح:

ـ وداعاً طفلتي الجريئة العنيدة.

ولن يزيد كلمة تهنئة لتيلها مرادها بالزواج بهارفي.

سألتها زوي وهما تنظفان المائدة بعد الغداء.

ـ متى سيأتي هارفي؟ لا تبدي دهشة يا آنستي الشابة. كان الباب مفتوحاً وسمعته يتكلم ليلة أمس عن موعد لقاء.. أليس كذلك؟

أحست كابي بتورد وجنتيها. لم تعجبها لهجة زوي فتذكرت أنها قالت إن هارفي واحد من عدة رجال غيره استخدم المنزل القديم للقاءات محرّمة..

قالت: «كان هذا مجرد كلام. لطالما تلاقينا فيه وفي بئر الأمنيات صغاراً، وقد تلاقينا أيضاً حتى في العربة القديمة القذرة الرائحة في سقيفة العربات.. كان كل ذلك مجرد هراء رومانسي».

ـ حسناً.. لستما طفلين الآن.. ولا شأن لك بالمكان بعدما بيع.

ـ لا أظن أن المالك الجديد سيعترض إن دخلنا إليه للمرة الأخيرة، خاصة وأننا كنا نستخدمه بكل حرية طوال تلك السنوات.. إنها زيارة وداعية. أظن أن هارفي يعتقد أننا ما إن ندخل المنزل القديم حتى يعود السحر فأرتمي بين ذراعيه، وأقول له نعم.. ولكننا ستتشاجر بشدة إن حاول القيام بشيء.

ولكن زوي شخرت ساخرة، ولاحظت كابي بداية ابتسامة مترددة، فعانقتها.. كان المطر قد توقف، وإمكانية وقوع شجار بينها وبين هارفي رفع من معنوياتها. حينما وصلت ساعة اللقاء، خرجت وهي تحمل علبة الموسيقى، لأنها الآن ملك للمالك الجديد لذا يجب أن تعيدها إلى مكانها مع سائر الكنوز المنسية..

بدا لها المنزل حزيناً مغماً للنفس بنباتاته المتعرشة المتدلية وبرطوبته التي بدت ككفن أشباح على الشرفة المهجورة. ولا بد أن زوي صعدت إلى هنا وتركت الباب مفتوحاً، مما سمح للضباب بالتسرب إلى الداخل.. هارڤي لم يصل حتى الآن.

دخلت كابي تنتظره.. وفيما هي منتظرة أطلقت علبة الموسيقى، تراقب مسرورة تحرك الجياد الصغيرة ذات الريش الجديد البرّاق المتراقص، فيما يتردد صدى الموسيقى في الغرفة الفارغة كأجراس شبح روح قديمة. تحركت كابي بضع خطوات ڤالس راقصة، متذكرة كيف التقطها تارغت وعانقها في غرفة الأطفال.. تفهم الآن، أنه كان سيقول لها يومذاك متأثراً بسعادتها إن المفاجأة مفاجأته حتى جيّرت بكل براءة الفضل لهارڤي.

أوقفت الموسيقى بعدما ظنت أنها سمعت حركة في الغرفة الثانية.. إنه هارڤي بالطبع يركن سيارته في مكان بعيد عن الأنظار، ويسبقها إلى مكان اللقاء ليفاجئها بخيالات جديدة.

قالت بصوت منخفض، وبلهجة متسائلة:

ـ هارڤي!

أطلت برأسها من الباب فرد عليها صوت مألوف غير متوقع: «أدخلي كابي».

فتحت الباب، فوقف تارغت عن أحد المقاعد المتآكلة المهترئة، فسألته وهي مسمرة قرب الباب:

ـ ماذا تفعل هنا؟

وتذكرت عادته التي لا يمكن التنبؤ بها، في اختيار لحظات غريبة للتواجد.

أجابها: «يجب أن أوجه هذا السؤال لك، لأنك متطفلة على أملاك الغير».

شهقت بسخط:

ـ متطفلة؟ لا أظن المالك الجديد يعتبر دخولي تطفلاً.

ـ ألا تظنين هذا؟ حسناً.. أنا المالك الجديد.. وأعترض على استخدام منزلي لأشياء حقيرة.

كان لصوته حد صارم.. أما الصدمة فكانت كبيرة على كابي..

قالت بصعوبة: «أنت اشتريت التيترز؟ لكن.. لماذا، لماذا؟»

ـ ولماذا لا؟ وهل ظننت أن لك حق احتكاره؟

ـ بالطبع لا.. لكن..

ـ لكن ماذا؟

ـ أنت من بين جميع الناس! ماذا تريد من مكان يبعد مئات الأميال عن مكان عملك؟ لا يكاد يكون هذا المنزل مناسباً للعطلات لمحام مشهور كثير الأشغال.

ـ كلامك موزون بشكل رائع. اسمعي، المسافة ليست مشكلة في هذه الأيام بوجود الطائرة. أما العطلات القضائية فهي مديدة عادة بحيث يستطيع فيها المرء قضاء وقت طويل بعيداً عن كل المشاكل. هل أنت بخير كابي؟ تبدين شاحبة.

لا تدري إن كانت تشعر بالمرض أو تشعر بأنها سائرة إلى أحلام اليقظة التي قد تنقلب إلى كابوس.. لم تقل شيئاً.. لكن ملاحظته السابقة بدأت تشق طريقها إلى عقلها.

سألته: «ماذا تعني بقولك: استخدام المنزل لأشياء حقيرة؟»

كان رده حاداً وفي غاية الوضوح:

ـ الأشياء التي ينغمس فيها فتاك.. على فكرة، لن يأتي إلى موعد لقائكما اليوم. لذا، أخشى أن تضطري إلى القبول بي نيابة عنه.

ـ ماذا تعني؟

ـ واضح كلامي.. لم يحتج السيد بورتلاند الوسيم الجبان إلى الكثير من الإقناع ليبتعد.. ولكنني لا أريد أن تصابي بخيبة أمل، لذا أنا مستعد لأكون بديلاً عنه.

ران صمت مطبق في لحظات طويلة حتى كادت قطرات الماء الرتيبة المتساقطة من أفاريز البناء تبدو لكابي كطلقات الرصاص.. بدت الغرفة ضبابية لأن الضوء بعد الظهر بدأ يتلاشى بسرعة. وفي مكان ما خلف كسوة الجدران السندياتية، سمعت حركة الفئران الصاخبة. كان عقلها يميز كل هذه الأشياء الصغيرة آلياً بينما هي تفكر في أمور أخرى. ما يقصده تارغت واضحاً كل الوضوح على عكس نواياه. ألأنها لا تعني له شيئاً الآن، يتهمها هذا الاتهام؟

أخيراً قالت: «إن ظننت أن موعدي مع هارفي لذاك الغرض فأنت مخطىء تماماً.. أجل بيننا موعد، إنما لوداع التيترز فقط».

ـ وهل كنتما تودعان التيترز كذلك على الشرفة ذلك المساء وأنت متمددة بين العشب والزهور غير مكترثة بمن يراكما؟

أدركت للمرة الأولى منذ عرفته، أنه غاضب فعلاً بشكل مخيف جعلها تخاف بسبب التهور الذي استخدمته لإثارته. كان يتكلم وهو يحاول السيطرة على نفسه، لكنها شعرت بحدة غضبه. فكرت فيما ساقاها ترجفان بطريقة غير مألوفة، بأن الغضب كان موجوداً ولكنها لم تلتقطه بسبب عدم رهافة سمعها وعدم خبرتها.

قالت، وهي تحاول التقاط رباطة جأشها:

ـ ولماذا أنت مهتم برؤيتنا؟ أنت تعرف أن هارفي يغازلني بل كنت تشجعه على ذلك.

ـ ليس للدوافع التي تتصورينها.. لكننا سنضع هذا جانباً الآن. أظن الوقت قد حان لنعيد سرد تلك الملاحظات الطفولية التي توحي بأن في عروقي غباراً ومواد أخرى بدل الدم الأحمر. كما حان الوقت لألقنك درساً في المساومة.. تعالي إلى هنا.

تقدمت إليه بدون اعتراض، خائفة، ليس منه بل من المرارة التي أثارتها والتي لا بد أعمته عن كل شيء إلا عن الغضب. ولكن عندما أطبقت ذراعيه حولها فقدت اهتمامها بكل ما في الدنيا وعادت إليها غريزياً

براءتها وقلة خبرتها ووجدت نفسها باكية. جذبها إلى الصوفا وهي بين ذراعيه. لم تكن تدرك أنها تبكي. فجأة أحست بغضبه يتلاشى وبيديه تغدوان رقيقتين، فلمساتهما رقت وأصبح ملؤهما الحنان وهو حنان يستحيل أن يبدر إلا عمن يحب..

قال هامساً: «والآن..»

دفنت وجهها في صدره، فنظر إليها رافعاً حاجبيه متسائلاً، وبريق الحنان في عينيه.. مدت يدها لتلمس بأنامل محبة الخطوط العميقة على طرفي فمه، غير عابئة بما قد يظنه بها..

قال وهو يلوي شفتيه قليلاً:

ـ هل ظننت أنني سأغويك، كجزء من الدرس؟

قالت حالمة: «ما كنت لأهتم حتى إن فعلت، بإمكانك أن تقوم بذلك إن شئت».

ـ هذا كلام غير محتشم! على أي حال، أظنني اكتشفت ما أريد معرفته بدون الوصول إلى حدود التطرف.. أنت امرأة طائشة كابي.. لذا آن الأوان أن تتزوجي من إنسان مسؤول ليسيطر عليك.

لقد اعتادت على طريقته في التعليق على موضوعات جادة فكان أن مرّ ما يعنيه بدون أن تفهمه، ثم جلست بسرعة تقول:

ـ أنا لن أتزوج هارفي.. قلت له «لا» في الأمسية التي رأيتنا فيها على الشرفة. ولكنه لا يصدقني.. لهذا جئت إلى هنا اليوم، لأوضح له كل شيء مرة أخرى.

ـ عظيم.. هذا يريحني! فهو ليس الزوج المناسب.

ـ إذن.. لماذا..

ـ لماذا شجعت هذا الحب غير المناسب؟ حسناً لأنه أعطاني عذراً للاستمتاع بصحبتك بدون تشجيعك على الظن بأنني ألاحقك، بدا لي ذلك أفضل وسيلة للوصول إلى مشاعرك.

ـ عظيم! إذن، كنت طوال الوقت تسلي نفسك فقط حتى يمر الوقت.

ربما كنت تدفعني ثمن اضطرارك إلى الالتزام بخطط شهر العسل.

قهقه ثم داعب شعرها بإعجاب، وقال:

ـ هل اعتقدت حقاً أنني غير قادر على تغيير خطط عطلتي لو أردت، أيتها الطفلة السخيفة؟

ـ إذن.. إذن.. لماذا لحقت بي، على أي حال؟

ـ أوه.. أجل، بطريقتي الملتوية.. هل اعتقدت أنني سأقبل عطلة مفروضة عليّ بدون احتجاج؟

ـ لكنك لم تفعل.. أعني أنك لم تعترض ولو بكلمة واحدة. لذلك من الطبيعي أن أعتقد..

ـ لقد اعتقدت أشياء سخيفة كثيرة يا حبي الصغير، كان هناك طريقة واحدة لتغيير الصورة التي رسمتها لي.. لماذا في ظنك اشتريت هذا المنزل إن لم يكن من أجل تحقيق رغبتك الحمقاء؟

ـ اعتقدتك اشتريته من أجل داندي.. لا أفهم شيئاً.. قالت إنها ستتزوج قريباً.. كانت حبك الحقيقي.. المرأة التي خذلتك أول مرة.

ـ هذا صحيح.. ستتزوج إنما بالرجل الذي فضلته علي.. في الواقع لم تنفسخ خطوبتهما، مع أنها مرت بفترة خصام. لقد قصدتني داندي إلى هذا المكان لتستشيرني في المسألة.

ـ إذن أنت لا تعترض؟ ذلك المساء يوم خطوبتنا، ظننتك مثلي قبلت بالزواج بي تعويضاً عن حب ضائع.

بدت عليها الحيرة كطفلة صغيرة، فضمها إلى صدره ثانية في حنان غير محكي. كان شعرها الطويل يغطي وجهها المغرورق بالدموع وأنفها الناقد الصبر يلمع.

قال: «أخشى أنني خدعتك بالنسبة لداندي.. صحيح أنني طلبت يدها، ولكن لم نكن متحابين.. لقد ترعرعنا معا فاعتقدت عائلتي وعائلتها بأننا سنتزوج.. ولكن أموراً كهذه قد تبقى عالقة لفترة طويلة.. في صغري أذهلني جمالها الصاعق ثم أصبح فيما بعد عادة اجتماعنا

فانجرفت، مع أنني لم أكن أرغب في الاستقرار فعلاً.. ولكن داندي، التي أشرفت على الثلاثين، فكرت في أن الوقت حان للنظر إلى المستقبل نظرة جادة. وفي النهاية وجدت أنها ستستقر مع ضابط مرموق، وأن هذا يناسبها أكثر من حياة رجل قانون.. فهل أجبتك عن أسئلتك؟».

انفصلت عنه، وتقدمت إلى النافذة، تريد أن تضع مسافة بينهما.. لو فهمت في ذلك الوقت سبب عدم انزعاجه من رفض داندي له لاتضحت لها تصرفاته، فليس تارغت ممن يلزم نفسه بخطوبة بدون حب لمجرد السعي إلى السلوان..

قالت: «إذن.. أعتقد أنك كنت مشفقاً عليّ».

كان المطر قد بدأ ينهمر من جديد فراحت تراقب المطر المنهمر وهو يحفر آثاراً جديدة على الزجاج المتسخ.

ـ ولماذا لا؟ أنا أشعر بالأسى على كل ما هو صغير بحاجة إلى المحبة والعطف والأمان خاصة إن كان يبحث عنها في أماكن مغلوطة. فهل هذا مذل كثيراً؟

ـ لا.. لا أعتقد هذا، ولكنه ليس سبباً لترتبط بمن لا تعرفه.

نظر إلى الظهر المستقيم النحيل، وابتسم وهو يراقب تصلب كتفيها البارز أمام النافذة، ثم حاول الوقوف للذهاب إليها، لكنه عاد وجلس ثم قال بلطف:

ـ لكنني كنت أعرف أكثر مما تظنين.. ذلك الابتهال الذي سردته عليّ ذلك المساء أعطاني صورة واضحة مؤثرة، عن الشخص الحقيقي فيك.

قالت بمقدار ما تستطيع من برود:

ـ لا شك أنني أضجرتك كثيراً.

في هذه المرة وقف مجتازاً الغرفة ليقف خلفها، يشدها إلى الخلف نحوه.

ـ هذه أبعد الصفات عنك يا حبي، ربما أنت مثيرة وحمقاء ولكنك

لست مملة أبداً. لماذا تقاومينني كايي؟

ـ لأنني لا أفهمك.. هل تعرف زوي بهذا؟ كانت دائماً إلى جانبك، منذ البداية.

ـ إذا كنت تشيرين إلى عدم توقفي عن ملاحقتك، أجل بالطبع. أما مسألة التيترز فلم تكن تعرف عنها شيئاً حتى اليوم الذي عدت فيه من لندن.

ـ لم ترد مني أن أذهب إليك تلك الليلة.. لماذا لم تخبرني ساعتئذ؟

اشتدت يداه على كتفيها وقال بصوت متوتر:

ـ لأنني لم أكن في مزاج يقبل شيئاً.. لقد سافرت وفي ظني أنك تحررت أخيراً من ذلك الغرام المراهق القديم وما أشد ما كانت صدمتي عندما شاهدت ذلك المنظر الغرامي على الشرفة.

سألت بذهول: «وهل غرت حقاً؟»

أدارها بنفاد صبر لتواجهه:

ـ بالطبع شعرت بالغيرة أيتها الجاهلة الصغيرة! ألم تغاري من داندي لسبب أقل من هذا بكثير؟

ـ لقد أخذت جانب الحيطة بحيث لم أستطع معرفة شيء. لقد شعرت بالغيرة منها ومن فتيات أخريات في القصر، حتى كدت أجن!

ـ ليس هناك بين محبيك القدامى من هو جاد. وهذا ما كان عليك التفكير فيه ملياً.

ـ لقد فكرت فيه، لكن عندما يكون المرء صغيراً، لا يستطيع فهم كنه المشاعر لأنه لا يعرف.. وحينما تشعر بأن حبك تجاه شخص ما قد تغير، ترتبك.

ـ أنت حبي الغالي.. لقد بنيت قصور الأحلام كما يفعل جميع الصغار الذين حرموا من الحب العائلي. ألم تفهمي حتى الآن أنني كنت أعتمد على هذا بانتظار اليوم الذي أستطيع فيه التودد إليك، التودد الذي لم تريه مني قط؟

أظلمت الغرفة كثيراً حتى كادت لا ترى الانطباع على وجهه ولكنها لاحظت أن زاويتي عينيه متجعدتين بتلك الطريقة المحببة التي ألفتها. بدا وكأنه ينتظر رداً.

ـ أجل.. أوه.. أجل.. لقد كنت ماكراً جداً حبيبي.

وتنهدت، ليرد عليها:

ـ ربما كنت أحمق أكثر مما كنت ماكراً. أترين، لم أفكر في السيد بورتلاند عندما بدأت بخطتي.. والآن.. هل توقفت عن الهرب؟ الملاحقة قد تصبح مضجرة، وعمتك بدأت تُظهر دلائل الملل.

دهشت: «عمتي؟ هل رأيتها حين ذهبت إلى المدينة؟»

ـ طبعاً. كيف تتصورين أنها امتنعت طوال هذا الوقت عن مطالبتك بالعودة الفورية؟ لأنني أقنعتها بأنك مع الوقت ستثوبين إلى رشدك، هذا إذا تركك الجميع وشأنك.

ـ كان يجب أن أعرف.. أليس كذلك؟ لقد كان تصرفها غير طبيعي.. وهل ظنت ماري لو أنني سأثوب إلى رشدي؟

ـ لم تكن ماري لو لسوء الحظ تعرف حقيقة مشاعري عندما استرقت السمع إلى ذلك الحديث غير المهذب.. فما هي ولا نانسي توقعتا أن أتزوج غير داندي.

ـ حقيقة مشاعرك؟

ـ أجل عزيزتي، أيتها البريئة السخيفة. في ذلك الشهر القصير، وقعت في حبك ولكن عائلتي لم تكن في حالة ذهنية تسمح بأن يصدقوا. والآن هل من الممكن لك أن تترجلي عن جوادك العالي وتطلبي مني أن أعيدك إلى وضعك السابق؟

ـ أوه.. تارغت.. حبيبي تارغت!

أخيراً فهمت قيمته الحقيقية، واستطاعت أن تعرف أن تلك السخرية الخفيفة التي أظهرها في أكثر من مناسبة، كانت وسيلة لإخفاء شعور ما كانت لتفهمه بسبب عدم نضجها.

www.liilas.com

قالت وهي تدس ذراعيها حول عنقه:

- رماني جوادي عن صهوته العالية منذ فترة بعيدة.. ولم أجد الشجاعة، أو الرغبة، لأتسلقه مجدداً.. سأبدأ من جديد إذا كان هذا يسعدك يا عزيزي العزيز تارغت.. أعتقد أنك لن ترغب في..

قطع لها جملتها بوضع أصابعه على شفتيها:

- لا كابي.. سنبدأ ونحن نستمر.. في هذه المرة سأتقدم أنا بالطلب.

ولكنه لم يطلب، إلا إذا اعتبر قوله بأنهما سيتزوجان في أقرب وقت مطلباً ولكن لا يهم سواء أطلب أم لم يطلب.. فالخيال استدار دورة كاملة ليعيش بدون حلم.. أما زوي فأصبحت آمنة حتى آخر عمرها، وأما الأطفال فسيعودون إلى اللعب والضحك في أرجاء المنزل القديم حيث سيسمح لهم بالاستماع إلى العلبة الموسيقية وهي تعزف لحنها القديم.

عندما كانت عائدة إلى الكوخ مع تارغت تحت المطر أخذت تعدد الأحلام التي تحققت كما كانت تفعل في طفولتها ولكنها وجدت أنها لم تعد بحاجة إلى هذا التعداد.. فلقد جعل تارغت لها كل شيء آمناً، وهي ستجعل له المستقبل آمناً أيضاً. عندما فتحا باب الكوخ استقبلتهما روائح الخبز المنزلي، وزيت الإضاءة ومواد تنظيف الأرض وهذه الروائح وضعت ختماً مريحاً للحب والدفء على مباهج القلب المخبأة.. كان ترجمة هذا كله بالنسبة لكابي «الانتماء». صاحت وهي تثب من فوق العتبة:

- تخبز زوي الكعك بالزعفران.. تعال تارغت، أكاد أموت جوعاً.

* * *

تمت

doode
al7aloo